سُبل التغيير وأشكاله في رواية "الأم" لمكسيم غوركي وقصة "أغانه شفايغرت" لأنا زيغرس (دراسة تحليلية مقارنة)

د. برهان أبو عسلي*

الملخَّص

التغيير نحو الأفضل مطلب ضروري في حياة الإنسان. وتحقيقه يحتاج إلى استعدادات نفسية وفكرية وإرادة ومؤهلات وقدرات وإيمان قوي به من الذين يريدون تحقيقه. والسُبل التي تؤدّي إليه كثيرة ومختلفة باختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي يكون عليها أيُّ مجتمع. ولا يخلو أيُّ تغيير من عقبات وصعوبات وربَّما يحتاج إلى تضحيات كثيرة.

في هذين العملين القصصيين اللذين نحن بصدد دراستهما وتحليلهما يعالج الكاتبان بمقدرة فائقة ووعي عملية التغيير والتحوُّل والتبدُّل في شخصية الإنسان، ويختاران شخصيتين من شخصيات المجتمع التي لا يتوقَّع المرء أن تكونا قادرتين على التغيير نظرًا لتقدُّمهما في العمر، وكونهما شخصيتين عاديتين، بسيطتين، مسالمتين لا قيمة لهما في المجتمع. ويضعانهما في ظروف قاسية وصعبة، على محكٍّ مع الحياة والخيارات الصعبة، بل يضعانهما في امتحان الذات وقدراتها وإخراج ما فيها من طاقات وإمكانات.

ينجح الكاتبان في تحقيق ما صبوان إليه من اكتشاف النفس البشرية وما تملكه من قدرات كامنة وطاقات مدهشة. كما تنجح هاتان الشخصيتان في الانتصار على الضعف الذي كانتا تشعران به في حياتهما، والخروج من الذات الضيقة إلى الذات الكبيرة، إلى العالم الأرحب والأوسع، ويُولِد صمتُهما الدائم أعذب الكلام وأرقه، وتفيضان على الجميع بالحب والخير. وأصبحت هاتان الشخصيتان قدوة ومثالًا لأيِّ إنسان عرفهما أو سمع بهما في التضحية والفداء من أجل أن تحيا الكلمة الصادقة والفعل النبيل.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

في هذه الدراسة المقارنة قدَّمت قراءة جديدة لعملية التغيير وسبلها في رواية "الأم" لمكسيم غوركي وقصة "أغاته شفايغرت" لأنا زيغرس. آملًا أن يكون فيها فائدة للقارئ عامةً، ولدارسي الآداب العالمية والأدب المقارن خاصةً، وأن تُسهم كغيرها من الدراسات في إغناء المكتبة العربية في هذه المجالات.

Ways and Forms of Change in the Novel "The Mother" by Maxim Gorky and the Story "Agathe Schweigert" by Anna Seghers
- Comparative Analytical Study -

Dr. Burhan Abou Asali**

Abstract

Change for the better is a necessary condition in human life. Achieving this requires psychological and intellectual preparation, the will, skills, abilities and a firm belief of those who seek to achieve it. The ways to achieve this are various and diverse depending on the social, historical and cultural conditions that a society has. With every change there are obstacles, difficulties and possibly victims.

In the two literary works we examine and analyze, the authors deal with the ability and awareness of the process of change and transformation of the human personality; the authors select two personalities from society who can never be expected to change due to their age, and simply, because they are peaceful and not important in the community, and they put these two characters in harsh and difficult conditions, and put life and difficult decisions to the test, so they undergo self-examination and explore their skills and potential.

The authors manage to achieve what they want to discover the human soul and its potential and abilities. These two individuals also manage to overcome the weakness they have felt in their lives, and to move from the narrow self into the larger self and the wider world. From their steadfast silence comes the most beautiful words and all the love and goodness. These two became an example of honesty, determination and self-

** Damascus University, College of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

sacrifice for everyone in love, so that the true word and the noble deed will forever prevail in life.

In this comparative study, in the novel "The Mother" by Maxim Gorky and in the story of "Agathe Schweigert" by Anna Seghers, a new reading of the process of change and its ways was presented, in the hope that it benefits the reader in general and those who are concerned with world literature and comparative literature in particular. The study is a manifestation of how other studies contribute to the enrichment of the Arabic library in these areas.

لا يخفى على أحد أنَّ للأدب وظيفة جوهرية ودورًا مهمًا في حياة الإنسان والمجتمع في كلِّ زمان ومكان؛ فهو يرصد حركة تطور المجتمع، ويقف على المشكلات التي تعترض سبل تطوره وتعيق تقدُّمه، ويظهر السلبيات ويبيِّن أسبابها ويحاول إيجاد الحلول المناسبة لتجاوزها؛ ولئن كان الأدب في وقت من الأوقات مكتفيًا برصد الواقع ومقصِّرًا في إيجاد الحلول المناسبة لواقع الإنسان ومعاناته[1]، فإنَّه اتخذ في أوائل القرن العشرين، وخاصة في روسيا، شكلًا جديدًا ورؤية واضحة بتأثير الفلسفة الماركسية، التي بدأت تظهر آثارها واضحة المعالم في الأدب[2]، وأصبح للكاتب – بوصفه "طليعة مجتمعه بما أوتي من مؤهلاتٍ فكرية وفنيّة ووعيٍ للعالم ومؤهلاتٍ قياديَّة تمكِّنه من التأثير في الأفكار والعقائد والقناعات والسلوك"[3] رسالةً جوهريةً إيجابيةً في المجتمع تتمثَّل في الفهم العميق لبنية المجتمع والعوامل الفعالة فيه والصراعات التي ستفضي إلى تغيير المجتمع والاتجاه به إلى غدٍ أفضل وحياة حرة كريمة.

وكان مكسيم غوركي Maxim Gorki[4] (1868–1936) من أوائل هؤلاء الكتَّاب الذين اتجهوا هذا الاتجاه الأدبي الجديد في أعماله، الذي أُطلق عليه "الواقعية

---

[1]- انظر: الأصفر، عبد الرزاق: المذاهب الأدبية لدى الغرب، مع ترجمات ونصوص لأبرز أعلامها –دراسة–، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص: 140 وما بعدها؛ وللمزيد حول الواقعية يمكن الرجوع إلى الخطيب، حسام: جوانب من الأدب والنقد في الغرب، منشورات جامعة دمشق، 1993، ص: 177 وما بعدها.

[2]- انظر: الخطيب، حسام: جوانب من الأدب والنقد في الغرب، المرجع السابق، ص: 237.

[3]- الأصفر، عبد الرزاق: المرجع السابق، ص: 145.

[4]- مكسيم غوركي: هو الاسم المستعار الذي اشتهر به الكاتب الروسي ألكسي مكسيموفيتش بيشكوف، ولد في 16 آذار من عام 1868 في مدينة نيجني نوفغورود ومات في عام 1936، يُعدُّ غوركي من كبار الكتاب الروس، وكان كاتبًا مخضرمًا، فقد برز واشتهر قبل ثورة 1917، وأصبح بعدها رائدًا للأدب السوفييتي ومعلمًا للكتاب السوفييت الناشئين بعد الثورة. فهو الوارث لتقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي والمؤسس للأدب السوفييتي. بدأ حياته الأدبية منذ عام 1892بقصة "ما كار تشودرا" وأتبعها بأعمال قصصية وروائية ومسرحية كثيرة، من تلك الأعمال: قصة "رفيقي في الطريق" 1894، قصة "الجد أرخيب وليونكا" 1894، قصة "العجوز ايزرغيل" 1894، قصة "تشلكاش" 1894، قصة "مرة، في الطريق" 1894، قصة "أنشودة العقاب" 1895، قصة "كونوفالوف" 1896، قصة "مالفا" 1897، قصة "ستة وعشرون رجلًا وفتاة واحدة" 1899، قصة "في أمريكا. مدينة الشيطان الأصفر" 1906. وللكاتب مجموعتان قصصيتان؛ الأولى بعنوان: حكايات عن إيطاليا ضمَّت ست قصص: (الإضراب، أطفال بارما، النفق، الأم، نونشيا، بيب) والثانية بعنوان: في أرجاء روسيا وفيها: "مولد إنسان"، "انزلاق الجليد" 1912، "الأحازين الغليظة" 1917، "الحب الأول" 1923، "قصص عن الأبطال" 1930–1931. ومن مسرحياته: "الحضيض" 1900، "البرجوازيون الصغار" 1901، "أعداء" 1906، "ييجور بوليتشوف وآخرون" 1931، "فاسا جيليزنوفا" 1935.ومن أعماله الروائية: "رواية الأم" 1906، رواية "قضية (عمل) أرتامونوف" 1925، رواية "حياة كليم سامغين" 1925–1936. فضلًا عن ذلك كتب غوركي سيرته الذاتية في ثلاثة أجزاء: "طفولتي" 1913، "بين النانس" 1915، "جامعاتي" 1923. وقد ترجمت معظم أعماله إلى اللغة العربية.

الاشتراكية"[1] فيما بعد. فقد خلق غوركي هذا المذهب من خلال تجاربه ومرارة الحياة التي عاناها وعاشها في بلده روسيا إبَّان الحكم القيصري الدكتاتوري الفاسد. وقد تجلَّت أفكاره وفلسفته في الحياة في معظم أعماله. وتُعدُّ رواية "الأم – Die Mutter"[2] التي صدرت عام 1906، أول عمل أدبي يمثِّل الواقعية الاشتراكية في العالم، وكان لها تأثير كبير وفعَّال في توجيه الوعي السياسي والثوري لدى العمال والفلاحين في روسيا الذين ترجموا ذلك الوعي عمليًا في ثورة أكتوبر 1917. كما امتدَّ تأثير غوركي وروايته "الأم" إلى كثير من الأدباء الذين جاؤوا بعده في بلاده وفي غيرها من بلدان العالم. فقد رأى غوركي في الإنسان قدرات هائلة، وإمكانات كامنة تحتاج إلى محرِّض ومثير لينطلق إلى حمل راية التغيير وبناء مستقبل مشرق وعالم ملؤه العدالة والمساواة والأخوَّة والسلام.

أمَّا أنا زيغرس Anna Seghers[3] (1900–1983) فتعدُّ من أهم كُتَّاب الواقعية الاشتراكية في ألمانيا الشرقية في القرن العشرين. فقد آمنت بالإنسان وحريته وقضاياه

---

[1]– بركات، وائل: الواقعية الاشتراكية، المغامرة والصدى دراسة مقارنة، وزارة الثقافة، دمشق، 1997، ص: 43 وما بعدها

[2]– اعتمدنا في دراستنا هذه على ترجمة الدكتور فؤاد أيوب والمحامي سهيل أيوب لرواية "الأم"؛ انظر: غوركي، مكسيم، المؤلفات الختارة في 6 مجلدات، المجلد 5: "الأم"، دار "رادوغا" موسكو، دار التقدم، الاتحاد السوفييتي 1983

[3]– ولدت أنا زيغرس في مدينة ماينتس عام 1900، وتلقت تعليمها في هذه المدينة، وفي عام 1919 حصلت على الثانوية العامة، والتحقت بجامعة هايدلبرغ لتدرس تاريخ الفن في آسيا الشرقية. وتعلمت اللغة الصينية، وفي عام 1924 حصلت على الدكتوراه. وعايشت الواقع بكل ما فيه من فقر وحرمان، وزارت بلدانًا كثيرة بعد دراستها، وكانت قارئة نهمة لأعمال دوستيوفسكي وغيره من الكتاب، وتزوجت عام 1925 من باحث الاجتماع الهنغاري لاسلو رضواني وأنجبت طفلين. وفي عام 1928 انتسبت إلى الحزب الشيوعي الألماني، وفي السنة التي تلتها انضمت إلى اتحاد الكتاب البروليتاريين الثوريين. وأكسبها دخولها إلى الحزب والاتحاد وغيرهما من فعاليات خبرة كبيرة وتجارب كثيرة. وفي أواخر العشرينيات عاشت الكاتبة مع زوجها في برلين، وفي خريف عام 1930 سافرت أنا زيغرس إلى الاتحاد السوفييتي مع وفد اتحاد الكتاب البروليتاريين الثوريين وشاركت في المؤتمر الدولي الحادي عشر للكتاب البروليتاريين الثوريين الذي انعقد في مدينة كاركوف. وقد تعرضت أنا زيغرس كغيرها من الكتاب الاشتراكيين للملاحقة والاعتقال في زمن هتلر، واضطرت لمغادرة ألمانيا عام 1933 إلى فرنسا، وفيما بعد إلى المكسيك. وعاشت فترة المنفى. وعادت إلى وطنها ألمانيا عام 1947، واستقرت في برلين. وبعد عودتها مباشرة شاركت في المؤتمر الأول للكتاب الألمان، وألقت كلمة حول الحرية الفنية. وفي عام 1948 سافرت إلى بولونيا للمشاركة في المؤتمر العالمي للمفكرين والفنانين من أجل حماية السلام الذي عقد في مدينة فروتسواف. وفي عام 1950 اختيرت أنا زيغرس رئيسة لاتحاد كتاب ألمانيا وبقيت فيه حتى عام 1978. وقد تركت خلال مسيرتها الأدبية – التي بدأت منذ عام 1924 – أعمالًا كثيرة في القصة والرواية: قصة "الموتى فوق جزيرة ديال" 1924، وقصة "غروبتش" 1927، وقصة " ثورة صيادي السمك في سانتا بربارا " 1928، رواية "الرفاق" 1932، رواية "أجرة الرأس" 1933، رواية "الطريق عبر شباط" 1935، رواية "الإنقاذ" 1937، قصة "المأوى" 1941، رواية "الصليب السابع" 1942، رواية "ترانزيت" 1943، رواية "الأموات يظلون شبابًا " 1949، رواية "القرار الحاسم" 1959، مجموعة قصصية بعنوان: "قوة الضعفاء" 1965، قصة "الأزرق الحقيقي" 1967، رواية "الثقة" 1968، قصة "رحلة بحرية" 1971، قصة "العصر الحجري" 1977، قصة "اللقاء الثاني" 1977.

العادلة، ودعت إلى السلام والمحبة ووهبت نفسها وحياتها وفنَّها في سبيل ذلك. وقد عكست أعمالها الروائية والقصصية ومقالاتها وخطبها وأحاديثها والمقابلات الصحفية معها ورسائلها عمق رؤيتها الإنسانية والإيديولوجية والفلسفية، وإيمانها بقدرات الإنسان في تحقيق الخير والعدالة والسلام والمحبة.

كانت حياة الإنسان ومعاناته والفكر الاشتراكي الذي آمنت به أنا زيغرس قولًا وفعلًا وممارسة منابع إلهام لها خلال مسيرتها الإبداعية الطويلة. ولهذا فإنَّها التقت مع غيرها من كتَّاب الواقعية الاشتراكية في كثير من القضايا التي تخصُّ حياة الإنسان ومصيره. وما قصتها "أغاته شفايغرت – Agahte Schweigert"[1] إلاَّ واحدة من هذه الأعمال التي تتقاطع في كثير من الأمور مع الكاتب مكسيم غوركي في روايته "الأم". ففي هذين العملين يتناول الكاتبان كثيرًا من القضايا المهمة في حياة الإنسان ووجوده، وكلها تصبُّ في مسألة كبيرة واحدة هي "عملية التغيير" وما يتعلَّق بها من أمور وأسئلة تمسُّ حياة الفرد من جهة، وحياة المجتمع من جهة أخرى؛ كيف نتغير إلى الأفضل، وما السبل التي علينا سلوكها لنتغير، وكيف لنا أن نكون أصحاب رأي وموقف في الحياة، وهل نحن مؤمنون حقًّا بقضايانا وما نسعى إليه في الحياة، ما درجة هذا الإيمان، وما العقبات التي تعترض عملية التغيير وما التضحيات التي علينا أن نقدِّمها في سبيل ذلك؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما كان يسعى إليه الكاتبان في عمليهما، ويفكران فيها، وربَّما يجرِّبان مقدرتهما الفكرية لسبر أغوار النفس البشرية وإخراج ما فيها من طاقات وقدرات وإمكانات لتوظيفها توظيفًا صحيحًا وتحقيق ما تصبو إليه هذه النفس من خير عميم وحياة حرة كريمة.

ومن هنا فإنَّ هذه الدراسة وقفت على بيان عملية التغيير والتحوُّل والتبدُّل التي عمل الكاتبان على إبرازها في عمليهما القصصيين، غير غافلةٍ عن الإشارة إلى ما تركه غوركي في أنا زيغرس من أثر في عملها، وأين تجاوز كلٌّ منهما الآخر.[2]

---

[1]– نُشرت هذه القصة ضمن مجموعتها القصصية "قوة الضعفاء – Die Kraft der Schwachen"، تسع قصص، برلين، 1965. وقد ترجمها الدكتور عبده عبود إلى اللغة العربية؛ انظر: زيغرز، آنَّا: المخربون، قصص، ترجمة: عبدو عبود، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1981.

[2]– آثرنا في دراستنا هذه أن تكون المقارنة بين هذين العملين من خلال قراءة كلٍّ عمل على حدة، وبيان سبل التغيير وأشكاله لدى الشخصيتين الرئيسيتين "بيلاجيا فيلاسوف" و"أغاته شفايغرت" وباقي الشخصيات الأخرى من خلال الأحداث والظروف التي مرت بها، والوقوف أخيرًا على أهمِّ نقاط الالتقاء والاختلاف في رؤية الكاتبين لعملية التغيير والتحول في الشخصية الإنسانية.

رواية "الأم" ومرارة الواقع:

منذ مطلع الرواية يضعنا مكسيم غوركي وجهًا لوجه أمام المكان الذي تجري فيه أحداث الرواية؛ وهو ضاحية عمالية، يعمل معظم رجالها وأبناؤها في المصنع القريب من الضاحية. والزمان –كما تشير أحداث الرواية– زمن الحكم القيصري. ومنذ البدء يُقدِّم لنا غوركي لوحة قاتمة عن هذا المجتمع الذي ينتمي إلى عصر التسلط والظلم، ويسوده الفقر والقهر والحرمان والمهانة والذل، مجتمع ساءت علاقات أبنائه فيما بينهم وغدت عُرفًا اعتادوا عليه في حياتهم اليومية كما لو أنَّهم ورثوها عن آبائهم، واستهلك المصنع الذي يعملون فيه قوَّتهم وراحتهم وأحلامهم. وآثروا الهروب إلى ما يلهيهم ويبعدهم عن معاناتهم اليومية الدائمة، كمعاقرة الخمرة والتسكع في الطرقات وما تجلبه هذه الأمور إليهم من ويلات "فقد استهلك المصنع النهار بأسره، وامتصَّت آلاتُه من عضلاتهم ما تحتاجه من قوة. ويمرُّ اليوم على هذا المنوال دون أن يخلِّف أثرًا، ويتقدَّم المرء خطوة جديدة باتجاه لحْدِه، لكنه يتوقَّع الآن، مع ذلك، بعض الأفراح، أفراح الراحة في حانة تعجُّ بالدخان والقذارة؛ وإنَّه بذلك لسعيد"[1].

هذا الواقع المرير المظلم القاسي جعلهم أكثر وحشية، أبعدهم عن إنسانيتهم، وجردهم من أحلامهم وآمالهم، وعطَّل تفكيرهم، وبدَّد قدراتهم وطاقاتهم، وحوَّلها باتجاه واحد فقط، هو الإحساس باليأس من كلِّ شيءٍ "كان إحساسٌ بالحقد الدفين يسيطر على علاقاتهم الإنسانية. وكان ذلك الإحساس قديمًا قِدَمَ التعب الذي لا شفاء له في عضلاتهم. إنَّهم يولدون وذلك المرض الروحي فيهم، يرثونه عن آبائهم، فيرافقهم كشبح مظلم طوال حياتهم حتى القبر، يدفعهم دون انقطاع إلى ارتكاب أفعال تثير وحشيتُها العديمةُ المعنى الاشمئزاز والنقمة معًا"[2].

فقد آثر هؤلاء الناس حياة الشقاء والخمول على النشاط والحيوية، واعتادوا حياة رتيبة في كلِّ ما يعيشونه، مستسلمين لقضائهم غير مفكرين بغدهم ومستقبلهم، ولا يريدون أن يتغيَّروا أو يتبدَّلوا أو يتحوَّلوا، بل إنَّهم لم يحاولوا التفكير يومًا في ذلك، لأنَّ أيَّ تغيير أو تبدُّل سيجلب لهم الهمَّ والتعب والقلق والمصائب. "كانوا يشتمون أبناءهم ويضربونهم بقسوة، لكن سُكْر الفتيان وعربدتهم الدائمة كانا مقبولين لديهم كأمرٍ لا مفرَّ منه أو مهرب. كان الآباء، في شبابهم يتقاتلون أيضًا ويعاقرون الخمرة ويتلقَّون اللكمات من

[1] رواية "الأم": ص: 4.
[2] المصدر السابق: ص: 5.

آبائهم وأمهاتهم. هذه سُنَّة الحياة دومًا، يجري تيارها الموحل في بطءٍ واستمرار سنوات بعد سنوات، مشدودًا إلى درب لا تتبدَّل من عادات للتفكير والسلوك قديمة ثابتة تتكرر من يوم إلى يوم. وإنَّ الرغبة في إدخال أيِّ تغيير على ذلك كلِّه لم تساور يومًا أحدًا منهم على الإطلاق"[1].

ولم يكن حال المرأة في ذلك المجتمع أفضل؛ فقد كانت مهانة ذليلة، تتعرض باستمرار للضرب والقسوة من قبل زوجها. وكانت بيلاجيا فلاسوف واحدة من هؤلاء النساء اللواتي عانين كثيرًا من الذل والقسوة والإهانة في حياتها[2].

فقد وصل الأمر بهؤلاء العمال إلى حدٍّ لا يطاق من السكونية والرتابة في معيشتهم وما يعانونه من قهر وظلم وفاقة. ونفروا من أيِّ إنسان يحاول إنقاذهم مما يعانونه أو يساعدهم على الخلاص من واقعهم المرير، بل صمُّوا آذانهم وتهرَّبوا ممن يريد لهم التغيير أو يعينهم عليه: "وكان العمال، إذا لحظوا في شخص غريب أمرًا شاذًا غير عادي، أخذوه عليه، وراحوا يراقبونه في يقظة وحذر، وكأنَّهم يخافون أن يشوش الانتظام الممل لتلك الحيوات التي هي –وإن كانت عسيرة شاقة– هادئة غير مضطربة على الأقل. فقد اعتادوا أن يشعروا بثقل الحياة متساويًا في سائر الأوقات، وأصبحوا يرون في كلِّ تبديل، بعد أن يئسوا من التخفيف عنهم، وسيلة قمينة بمضاعفة بؤسهم وشقائهم والاستزادة منهما. وكان العمال يتوارون، في سكون، عن أولئك الذين ينطقون بآراء جديدة ويتجنبون طريقهم"[3].

هذا هو الواقع الذي يرزح تحت وطأته مجتمع الضاحية، مجتمع العمال، الذي لا تختلف عنه مجتمعات العمال في أماكن أخرى من روسيا وغيرها من بلدان العالم. ولم تكن عائلة فلاسوف وأصدقاؤها ومعارفها بمنأى عن هذه الحياة الشاقة المريرة البائسة.

سبل التغيير وأشكاله:

أدرك مكسيم غوركي أنَّ التغيير المنشود يتطلَّب جهودًا كثيرة، وأنَّ أيَّ تغيير لا بدَّ له من تضحيات، وقبل كلِّ شيءٍ أنَّ على من يسعى إلى التغيير عليه أن يكون واعيًا واقعه، ومؤمنًا إيمانًا قويًا بما يسعى إليه، يهب الغالي والنفيس من أجل تحقيق ما يصبو إليه. وكان يدرك أيضًا أنَّ الناس ليسوا على سوية واحدة من التفكير والاهتمام والإخلاص لقضاياهم والإيمان بها. وأنَّ هناك عقبات كثيرة تعترض كلَّ من يسعى بمفرده

[1]- المصدر السابق: ص: 6.
[2]- رواية "الأم": ص: 5-22/9 وما بعدها.
[3]- المصدر السابق: ص: 7 وما بعدها.

إلى قيادة التغيير، وأنَّ القيادة لها شروطها، وأنَّ النية لا تكفي لنيل المراد، وإنَّما العمل المضني الشاق والدؤوب. وأنَّ التغيير لا يمكن أن يتمَّ بين ليلة وضحاها، وأنَّه محفوف بالمخاطر، وأنَّ الانفعالية والعواطف مرفوضة في مثل هذه الأمور، وأنَّ الإقناع هو السبيل الأجدى، وفوق هذا وذاك لا بدَّ أن يكون هناك مُوجِّهٌ ومرشدٌ، أي قيادة فكرية موجِّهة لأيِّ تغيير؛ ووفقًا لهذا الإدراك أخذ غوركي يقرِّبنا شيئًا فشيئًا مما رمى إليه؛ فوضعنا مباشرة في قلب الأحداث وكيف أخذت تتطور عبر شخصية الأم بيلاجيا نيلوفنا بطلة الرواية تلك الشخصية المحورية التي لا تغيب عنَّا لحظة واحدة منذ بداية الأحداث حتى نهايتها فكأنَّها هي التي تروي لنا الأحداث بعينيها وروحها وقلبها وبشفافية وصدق نادرين

فقد رأى غوركي أنَّ أيَّ تغيير يقوم على ركيزتين رئيسيتين هما الوعي والقراءة؛ الوعي الذي يُمكِّنُ الإنسان من إدراك الواقع إدراكًا حقيقيًا، ويجعله يتحسس آلامه ومعاناته، وسطوة الظلم والقهر التي تحيط به، وتُحفِّزه على الخروج عن المألوف السائد المميت إلى حياة سعيدة، الوعي الذي يحيل الإنسان إلى قوة متفجِّرة من الطاقات والإبداعات والانقلاب على الذات وتغييرها، بل هو الثورة على الذات والتغلب عليها، والنفوذ إلى جوهر الحقيقة، إلى جوهر الحياة، وقلب المفاهيم المغلوطة والعادات السائدة، وإدراك معنى العلاقات الاجتماعية وتجاوز المفاهيم الطبقية وفوارقها التي كانت سببًا في كلِّ الويلات والمصائب التي يعيشها الإنسان في كلِّ العصور وتعيق حركة تقدُّمه وتطوره

أمَّا الركيزة الثانية فهي القراءة بأنواعها وأشكالها المختلفة الموصلة إلى العلم والمعرفة والوعي. فغوركي لم يقصد هنا القراءة التي يمارسها الكثيرون دون طائل، وإنَّما قصد تلك القراءة الفاعلة الموصلة إلى التغيير والتبدُّل والتحوُّل في الفكر والوعي، القراءة المؤثِّرة في الإنسان، قصد كلَّ ما تحمله القراءة من أبعاد ودلالات ومعان، قصد العلم والمعرفة والتبصُّر والتأمل والتفكر، قصد قراءة الحياة وما فيها من جمال وخير، وقصد قراءة الأفعال لا الأقوال، قصد من ورائها فنَّ قراءة الإنسان وواقعه، وافقدرة على التقاط الأفكار والآراء والتفاعل معها وترجمتها عمليًا وفعليًا.

ومن خلال هاتين الركيزتين التثقيفيتين يُقدِّم لنا غوركي أعظم درسٍ في التغيير والنضال على المستويين الفردي والاجتماعي. وقد كان اختياره لشخصية الأم، تلك المرأة البسيطة، التي سحقتها ظروف الحياة ومرارة العيش، اختيارًا موفقًا، يحمل دلالاتٍ وأبعادًا كثيرة. فمن خلال هذه الشخصية يُبرز لنا عمق المأساة التي يمرُّ بها الإنسان وشدَّة المعاناة التي يتعرَّض لها في حياته، ومن جهة أخرى يُظهر عظمته وقدرته إذا آمن بشيء، واقتنع بضرورته، وصمَّم على تحقيقه.

كانت بيلاجيا نيلوفنا، أُمًّا تفيض حنانًا ومودةً ولطفًا ورقةً على الرغم مما عانته في حياتها من شقاء وقسوة زوجها ميخائيل فلاسوف الذي مات وابنه بافل لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر. هذه الأم التي عاشت حياتها صامتة مستسلمة فقدرها، تُؤدِّي واجبها كأُمٍّ على أحسن ما يكون، ظلمتها الحياة، وظلمها زوجها وأهانها بسلوكه وتصرفاته، أهانها كإنسانة لها وجودها كزوجة وأُمٍّ، لم تعرف الراحة والهناء طوال أربعين سنة من حياتها.

أدركت الأم بوعيها الفطري أنَّ عليها حماية ابنها بافل من الانزلاق إلى المصير الذي كان أبوه يسلكه في حياته، فبادرت إلى ردعه بأسلوب الأُمِّ الذي يفيض رقةً وحنانًا وخوفًا: "لكن، لا تَعْتَدْ أنت على الشرب! شرب أبوك عنه وعنك، وما يزيد أيضًا. أفلا يكفيني ما لقيت من شقاء على يديه، أفلا ترحم أمك قليلًا ؟"[1].

كان لهذه الكلمات في نفس بافل أثر كبير، جعلته يعيد النظر في حياته، ورأى أنَّ أمَّه كانت على حقٍّ، وأنَّه كان في يوم من الأيام يرفض سلوك والده، بل خاصمه قرابة عامين بسبب أفعاله والإهانة التي كان يسببها لوالدته. فقد وعى بافل واقعه وأدرك المعاناة التي يعيشها هو نفسه، ومعاناة البيئة التي ينتمي إليها، وبأنَّه لا بدَّ من تغيير سلوكه، والتخلُّص من عادات مجتمعه السيئة، وبناء شخصيته بناءً جديدًا ليتمكَّن من تغيير الواقع المؤلم والشقاء المستمر زمنًا طويلًا.

فقد وجد ضالته المنشودة في الحزب الذي انتسب إليه، وفي أولئك الرفاق الذين وثق بهم، وآمن بأهدافهم وغاياتهم وطموحاتهم.

وكان للاجتماعات التي كان يحضرها مع الرفاق في المدينة، وفي بيته لاحقًا، ومشاهدة المسرح، وقراءة الكتب الأثر الفعَّال في نمو وعيه واتساع مداركه. ومع مرور الزمن نما لديه حب القيادة وتوجيه الآخرين.

انعكس ذلك كله في سلوك بافل مع أُمِّه ومع أولئك الرفاق الذين كانوا يزورونه في بيته. وقد لاحظت الأم ذلك التغير والتبدُّل الذي بدأ يظهر في حياته، وأخذت تتابع هذا التبدُّل بشيءٍ من القلق والخشية.[2] فلم يعد كما كان سابقًا، إنَّه يقرأ الكتب ويحملها إلى بيته، ويخبئها حين ينتهي من قراءتها، أو ينسخ منها أشياء. ولم يعد يذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد كغيره من أبناء الحي، تغير سلوكه كليًا، وبدأت تظهر في أحاديثه كلمات

[1]- رواية "الأم": ص: 14.

[2]- رواية "الأم": ص: 17 وما بعدها.

جديدة لم تسمعها من قبل، وأخذ يساعدها في شؤون البيت، وأصبحت علاقته بأُمِّه أكثر انسجامًا وحبًا واحترامًا. وأصبح يعطي أُمَّه كامل أجوره، ويقي عامين على هذه الحال من المواظبة على القراءة ومساعدة أُمِّه. تقول الأم: "الناس يتصرَّفون كما ينبغي أن يتصرَّفوا، أمَّا هو فأشبه بالرهبان، جدِّيٌّ دومًا ورزين دومًا، ذلك لا يلائم سنَّه"[1].

كانت كلمات الأُم السبب الأول في تغيير ابنها وتوجيهه الوجهة الصحيحة. كانت المُحفِّز والمحرِّض على التغيير، فتغيَّر، وتحوَّل من إنسان سلبي إلى إنسان إيجابي فعَّال، وجَّه حياته كلَّها إلى خدمة مجتمعه فكريًا وثقافيًا وثوريًا. اختار طريق العلم والمعرفة ليصل إلى الوعي الذي يجعله أكثر قدرة على رؤية الواقع رؤية حقيقة وتغييره نحو الأفضل، والتغلب على الصعوبات كلِّها. تعلَّم ليُعلِّم، أدرك ليجعل الآخرين يدركون، وعى الحقيقة، وجد هدفه، ونذر نفسه ليجعل الآخرين يعون ما وعى، وليعرفوا كيف يسيرون نحو الهدف المنشود.

في كلِّ لقاء بأُمِّه، وفي كلِّ حوار يدور بينهما كان يوقظ فيها ما كان ساكنًا هاجعًا منذ سنين، يثيرها بكلماته عن العدالة والحقيقة، يجعلها تعي واقعها، وتُغيِّر أفكارها التي ورثتها عن مجتمعها. "كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها إنسانًا يتحدَّث عنها وعن حياتها، فأثارت الكلمات في خاطرها أفكارًا غامضة أبعدتها عنها منذ زمن سحيق، بل أحيت فيها –بكل هدوء– شعورًا مبتًا بالاستياء من الحياة، أفكار الشباب البعيد ومشاعره"[2]. أراد أن تكون أُمُّه أوَّل من يسمعه ويفهمه ويثق به، وبأنَّه يسير في طريق ارتضاه لنفسه وللآخرين، هذا الطريق الذي يقود المجتمع إلى الخلاص مما يعانيه ويقاسي آلامه زمنًا طويلًا. إنَّه طريق العدالة والحرية والخلاص من الظلم والاضطهاد والاستغلال، لكنه طريق محفوف بالمخاطر والصعوبات، ويحتاج إلى من يؤازره ويشدُّ من عزيمته ليبقى قويًا متماسكًا: "أنا أقرأ كتبًا ممنوعة. هي ممنوعة لأنَّها تقول الحقيقة عن حياة العمال. وهي تُطبَعُ في الخفاء. وإذا وجدوها عندي ألقوا بي في غياهب السجن، في السجن لأنَّي أريد معرفة الحقيقة. هل تفهمين؟"[3].

إنَّ معرفة الحقيقة أمرٌ ممنوع ومرفوض ولا يمكن تقبُّله في ذلك المجتمع. والوصول إليها ليس أمرًا سهلًا، بل يتطلَّب تضحية وصبرًا وجهودًا مضنية وعملًا دؤوبًا مستمرًا، وليس ذلك فقط، إنَّما الصعوبة تكمن في إيصالها إلى الآخرين، في إيجاد أولئك الذين

[1]- المصدر السابق: ص: 19.
[2]- المصدر السابق: ص: 23.
[3]- المصدر السابق: ص: 21.

يتفهمون ويستمعون ويؤمنون بما يؤمن به. إنَّه غير واثق بعد في وجود أولئك الذين يؤمنون بما آمن به، لكنه سيحاول. إنَّه لا يزال يتشكَّل فكريًا ووعيًا وممارسة، ولا يزال الطريق أمامه مفتوحًا على احتمالات كثيرة، فهناك الإخفاق، وهناك النجاح. لكنَّه مؤمن بخوض غمار هذه التجربة، والمثابرة على السير فيما وهب نفسه من أجله. فقد شكَّل سؤال أمِّه: "وماذا تنوي أن تفعل؟" له نقطة تحوُّل مهمة، هذا السؤال الذي يحمل الشكَّ في قدرته على فعل ما صمم عليه. لكنه يجيب بإصرار وعزيمة: "أن أدرس أولًا، ثمَّ أُعلِّم الآخرين. نحن العمال، يجب أن ندرس؛ يجب أن نفتش ونفهم أسباب العناء في حياتنا"[1].

كانت سعيدة وفخورة بابنها وما يقوله لها و"... كان يتنازعها عاملان: شعور بالفخر بابنها الذي وعى، بكل ذلك الوضوح، مرارة الحياة؛ وإدراكها أنَّه لا يزال شابًا، وأنَّه يتكلم بصورة تختلف كثيرًا عن سائر الآخرين، وأنَّه أخذ على عاتقه أن يخوض المعركة وحيدًا ضدَّ هذه الحياة المألوفة لدى جميع الناس، وهي منهم. وأرادت أن تقول له: ماذا تستطيع أن تفعل وحدك، يا حبيبي؟"[2].

إنَّ أحاديثه كلَّها عن العمال وقسوة الحياة التي يعيشونها ما كانت إلاَّ لتزيدها خوفًا ورهبة مما سيلاقيه ابنها. إنَّها مؤمنة به وبما يقول، ومؤمنة أنَّ الحقيقة على الرغم من جمالها مسالكُها مرة ووعرة وشاقة. وأنَّ العدالة رائعة، لكن كيف الوصول إليها. فابنها لا يزال شابًا، والناس لا يؤمنون به، وسيجد صعوبات كثيرة لإقناعهم. لكنَّها لم تكن لتثبِّط من عزيمته وإيمانه، ولن تقف في طريقه أو تفعل ما يسوؤه، ونصحته بالاحتراس قائلة: "فليكن الله معك! عش كما تجد مناسبًا أن تعيش! معاذ الله أن أقف في طريقك. بيد أني أسألك شيئًا واحدًا فقط – لا تكُ متهورًا في حديثك مع الناس! ينبغي أن تحمل في نفسك الخوف منهم. إنَّهم يبغضون بعضهم بعضًا! يعيشون جميعًا في الطمع، والحسد، والغيرة، ويبتهجون إذ يُلحقون الأذى ببعضهم بعضًا. فإذا أخذت تكشف حقيقتهم وتتهمهم أبغضوك ودمروك!"[3].

وافقها الرأي. كان يرى في الناس الشر، لكنه حين وعى تغيرت نظرته إليهم "إنَّكِ لعلى حقٍّ، فالناس أشرار جميعًا! لكني حين عرفت أنَّ في العالم شيئًا كالعدالة بدوا لي أفضل من قبل!... أنا نفسي لا أعرف كيف حدث هذا! في طفولتي كنت أخاف من الناس جميعًا. وعندما شبَبْتُ كنت أكرههم جميعًا، أبغض بعضهم لدناءتهم والآخرين دون

[1]- رواية "الأم": ص: 24.
[2]- المصدر السابق: ص: 24.
[3]- المصدر السابق: ص: 26 وما بعدها.

أن أدري لماذا، هكذا لمجرد البغض! أمَّا الآن، فكل شيء يبدو لي غير ما كان عليه. لعلَّ السبب في ذلك أني أشفق على الناس. فقد رقَّ قلبي نوعًا ما عندما تحققت أنَّ الناس جميعًا ليسوا بمسؤولين عن حقارتهم ودناءتهم... تلك هي الحقيقة إذًا"[1].

هذا الحديث النابع من القلب جعلها تمتلئ سعادة وفخرًا بابنها، ورأت فيه المُخلِّص والمنقذ، إنَّه يشبه الأنبياء في تخليص البشرية من معاناتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور "أواه، أيها المسيح المُخلِّص! أي تبدل خطير طرأ عليك!"[2].

إنَّ وصفه بالمسيح لها دلالاتها العميقة ورمزيتها البعيدة، إنَّها تعني العذاب والشقاء، وأنَّ طريق الخلاص طويل.

ويدرك غوركي أنَّ مثل هذا التغيير ليس سهلًا على كلِّ إنسان، وأنَّ المرء يحتاج إلى وقت ليس قصيرًا، وحججًا قوية ليقنع بها الآخرين لتغيير سلوكهم وتفكيرهم وقناعاتهم السابقة وما آمنوا به طوال مسيرة حياتهم. ويدرك غوركي كذلك أنَّ الناس ليسوا على سوية واحدة من الوعي والفهم والإدراك، وأنَّ ذلك الاختلاف يجب أن يُراعى في أيِّ عملية تغيير. فالشباب أكثر قدرة على مواكبة الواقع من الكبار. وقد أظهر غوركي ذلك في روايته؛ فبافل كان أقدر على وعي عملية التغيير وضرورتها وعمل على ذلك حين أتيحت له الظروف، أمَّا أُمُّه فلن تكون قادرة على استيعاب ذلك في فترة وجيزة، وإنَّما تحتاج إلى وقت، وربما يطول هذا الوقت. فقد حاولت أن تتفهم ما كان ابنها يفكِّر فيه ويسعى إليه، كانت تستمع إليه برغبة، وكانت فخورة بتغيره وتبدله. وهذا يسعدها، لكنها كانت في الوقت نفسه قلقة، خائفة، يساورها الشك في قدرته على تحقيق ما نذر نفسه إليه.

كان غوركي يؤمن إيمانًا قويًا أنَّ الإنسان بأعماره المختلفة وبثقافاته المتنوعة قادر على التغيير، إلاَّ أنَّ ذلك يتطلَّب أولًا وأخيرًا بناء الثقة بين المرسل والمتلقي، بين المعلِّم والمتعلِّم، بين الواعي وغير الواعي، بين المدرك وغير المدرك. وهذا ما حققَّه في هذه المرحلة من مراحل التغيير وأظهره من خلال الحوارات والنقاشات المتتالية بين بافل وأُمِّه. فبافل، بما يؤمن به من أفكار وما يسعى إليه، كان يحتاج إلى من يسمعه ويثق به. وقد وجده في أُمِّه. تلك الإنسانة الأقرب إليه، والأكثر حبًا وعطفًا وخوفًا عليه. حدَّثها بما يجيش في صدره وما يقلقه. أباح لها بما ينوي، وما يريد، وما سيفعل. استمدَّ منها القوة حين استمعت إليه، حين فتحت له قلبها، وغمرته بحنانها وعطفها. جعلته أكثر ثقة

---

[1] المصدر السابق: ص: 27.

[2] المصدر السابق: ص: 27.

بنفسه. أصبح مطمئنًا أنَّه يسير في الطريق الصحيح، وأنَّ هناك من يقف إلى جانبه، يحميه ويشدُّ من أزره. وقد تجلَّى ذلك في كثير من المواقف التي تلت تلك النقاشات والحوارات. وبدأ خوفها يتلاشى شيئًا فشيئًا وخاصة حين كان يجتمع الرفاق في بيتها، وحين تعرَّفت إليهم واحدًا واحدًا، وراقبتهم عن كثب واستمعت إلى أحاديثهم الكثيرة عن العدالة، وعن الغايات السامية التي وهبوا أنفسهم من أجلها. وبالمقابل كانت هي نفسها تدرك شيئًا فشيئًا أنَّ ما يسعى إليه هؤلاء الرفاق يستحقُّ التضحية، أحبتهم كما تحب ابنها بافل، وأحبوها بقلوبهم وعقولهم، وجدوا فيها الدفء والحنان، وجدوا فيها أمهاتهم، وأصبحوا ينادونها كلهم بألفاظ: (أماه، أميمة، أمنا، أم) التي تنمُّ على ذلك الحب الذي منحتهم إياه وولد في تلك الغرفة الصغيرة في بيتها. جمعتهم بحبها وحنانها ومودتها وعطفها، وقرَّبتهم من بعضهم، وكان أندريه ناخودكا الأثير إليها وأقربهم إلى قلبها، وكانت تبثُّه كثيرًا مما تحسُّ وتفكِّر وتخشى. وكان هو يبادلها المودة والحب بالمثل. وحين كان بافل يقسو عليها في كلامه كان أندريه يناصرها ويقف إلى جانبها، ويعاتب صديقه بافل على قسوته على أمه. فقد أصبح الجميع أسرة واحدة، يجمعهم هدف واحد.

إنَّ هذه اللقاءات والاجتماعات التي كانت تجري في بيتها شكَّلت نقطة تحول كبيرة في حياة بيلاجيا نيلوفنا. فمن ناحية بدأ خوفها يتبدد شيئًا فشيئًا، ومن ناحية أخرى بدأ وعيها يتطور تدريجيًا. فقد بدأت تعي وتدرك معنى المعرفة التي ينبغي أن تُشْعَلَ في النفوس لتشعَّ على أولئك الذين أظلمت عقولهم وغمرهم الجهل بظله زمنًا طويلًا[1]. وعرفت كذلك أنَّ الناس ليسوا أغبياء وليسوا حيوانات تقاد وتُستعبد وأنَّ المرء عليه أن يعيش حياته ككائن بشري، وأنَّ حياة العبودية لن تستمر ولا تمنعهم من أن يكونوا متساوين معهم فكريًا بل متفوقين عليهم أيضًا[2]. وسمعت عن عمال العالم ما كان الرفاق يقرؤونه في اجتماعاتهم، وكيف كانوا يفرحون لانتصاراتهم ويتألمون لمعاناتهم[3]." في تلك الغرفة الصغيرة ولد شعور بالقربى الروحية مع عمال العالم أجمع. وكان هذا الشعور يصهرهم جميعًا في روح واحدة عظيمة. ويؤثِّر في الأُمِّ نفسها. ومع عدم إدراكها لذلك الشعور، فقد كان يستهويها بقوته الفتية المسكرة، وببهجته، وبالأمل النابض فيه"[4].

[1]- انظر رواية "الأم": ص: 42.
[2]- انظر المصدر السابق: ص: 42 وما بعدها.
[3]- انظر المصدر السابق: ص: 54 وما بعدها.
[4]- المصدر السابق: ص: 55.

فقد كان وعي الأم وإدراكها يتشكَّل شيئًا فشيئًا، إنَّها لا تدرك كلَّ شيءٍ كما يدركه ويعيه الرفاق، لكنها كانت تحاول جاهدة أن تتفهم وتتعلم، تريد أن تعرف كيف يتولَّد الحب في القلوب، وكيف يكون الناس رفاقًا لبعضهم دون أن يروهم أو يلتقوا بهم. يجيبها أندريه الأوكراني عن تساؤلها وتعجبها "من أجلهم جميعًا، يا أميمة، جميعًا دون استثناء! نحن لا نعرف فِرَقًا ولا أُممًا، بل نعرف رفاقًا فحسب، وأعداء فحسب. سائر العمال رفاقنا، وجميع الحكومات والأغنياء أعداؤنا... نحن جميعًا أبناء أمة واحدة، وتلك عقيدة أخوة العمال في العالم أجمع، العقيدة التي لا تغلب. وتلك الفكرة تدفئ قلوبنا، إنَّها الشمس تشعُّ في سماء عادلة، وتلك السماء هي في قلب الإنسان العامل. إنَّ الاشتراكي، كائنًا من كان، وبأيِّ اسم يدعى، هو أخ لنا في الروح اليوم وإلى دهر الداهرين."[1].

فقد جعلتها هذه الكلمات وما سبقها ولحقها من حوارات ونقاشات أكثر ثقة بنفسها، وأكثر إحساسًا بوجودها، وأنَّه يجب عليها أن تكون فاعلة مؤثِّرة ولو بقدر بسيط وحسب إمكاناتها المتواضعة، والعمر الذي وصلت إليه. فالقضية التي يسعى إليها هؤلاء الرفاق قضية سامية، وغايتهم عظيمة نبيلة، وأنَّه يجب عليها أن تقف إلى جانبهم وتناصرهم، وإن تطلَّب الأمر أن تسير معهم وترافقهم في طريقهم، طريق النضال والكفاح. وقد ترجمت وقوفها معهم ومناصرتها لهم ترجمة عملية في مواقف عدة، أهمها:

أولًا: خوفها الدائم على ابنها ورفاقه، واحتضانهم في بيتها ورعايتهم وتفقُّد شؤونهم والسهر على راحتهم وتأمين متطلَّبات استمرار وجودهم ونضالهم وتتبع أخبارهم، والإشفاق على مصائرهم وعذاباتهم وتضحياتهم في سبيل القضية التي وهبوا أنفسهم لها، وقد كان لكلٍّ من هؤلاء الرفاق[2] قصة تثير الأم وتمدُّها بطاقة من الحياة والشجاعة والاستمرار في هذه التجربة الجديدة من معاركة الحياة وخوض غمارها.

ثانيًا: إخفاء الكتب والصحف التي كانت تُقرأ في بيت بافل والمنشورات التي كانت تُوزَّع على العمال في المصنع[3].

ثالثًا: الزيارات الأسبوعية للمناضل الأوكراني أندريه ناخودكا في السجن بعد اعتقاله وإحضار الكتب والثياب له.

رابعًا: رغبتها في التعلم، تعلم القراءة وأهميتها في تطوير وعي الإنسان، وإدراكها أن لا قيمة للإنسان من غير التعلم، وأن التعلم يقود إلى المعرفة، والمعرفة تقود إلى الوعي،

---

[1]- رواية "الأم": ص: 55 وما بعدها.

[2]- من هؤلاء: أندريه ناخودكا، ساشنكا، صموئيلوف، نيقولاي إيفانوفيتش، ناتاشا، ربين، بيجور إيفانوفيتش صوفيا وغيرهم.

[3]- انظر رواية "الأم": ص: 69.

والوعي يؤدي إلى التغيير. وقد تجلَّت تلك الرغبة منذ كان الرفاق يقرؤون الكتب في منزلها ويتناقشون في مضامينها، وفي سعيهم للحصول على الكتب والمنشورات وإيصالها إلى العمال في المصنع، وإلى الفلاحين في القرى. فتعلُّمُ القراءة كما يُعبِّر أندريه في حديثه للأم يشبه المطر، وأن كل قطرة تسقي البذور[1]. وتأثير القراءة يُعبِّر عنه الفلاح ريبين بقوله إلى بافل وبحضور الأم: "إنِّي بحاجة إلى معونتك! أعطني كتبًا من ذلك النوع الذي يذهب بنوم الإنسان طوال ليالٍ عديدة إذا قرأها مرة... قل لأولئك في المدينة الذين يكتبون لكم أن يكتبوا شيئًا للقرية أيضًا ! فليكتبوا حتى يصبح للأحرف ضجيج، وحتى يذهب الناس إلى حتفهم في سبيل القضية"[2]، "اكتبوا حتى يستطيع، حتى العجول، أن يفهموا أيضًا"[3]. وقد تجلَّى تأثير القراءة وأهميتها فيما عاشته ولمسته فيما بعد في المدينة التي انتقلت إليها وفي القرى التي زارتها.

خامسًا: الوقوف إلى جانب ابنها ورفاقه في حادثة كوبيك المصنع. وتعبر عن ذلك بقولها: "إنِّي قادمة أيضًا، ماذا هم فاعلون، يا ترى؟ إنِّي قادمة"[4]. وحين اعتلى ابنها كومة الحديد ليخطب بالمحتشدين ويدافع عن حقوقهم وإلغاء القرار المتعلق بحسم الكوبيك؛ تلك الضريبة التي فرضها مدير المصنع على العمال، تحرَّكت الأم دون وعي مقتربة من ابنها "دفعوها بالمناكب فلم تأبه لذلك، ولم تفلَّ عزيمتها، بل استمرت تشق طريقها بكتفيها ومرفقيها، وهي تقترب ببطء من ابنها تحدوها الرغبة في الوقوف إلى جانبه"[5]. فقد كانت فخورة بابنها الذي ألقى خطبة رائعة أمام العمال، وواجه مدير المصنع بالعدالة وصون حقوق العاملين. وحين حدَّثها عن ضعفه وعجزه وعدم قدرته على إقناع العمال وانضمامهم إلى قضيته، واسته بكلماتها الرقيقة: "انتظر! لسوف يفهمون غدًا مالم يفهموا اليوم"[6].

سادسًا: مشاركتها في احتفال الأول من أيار الذي حضَّر له بافل وأندريه منذ مدة طويلة. في هذا اليوم كانت تسير إلى جانب ابنها وأندريه وهما متوجهان إلى مكان الاحتفال. وفي الطريق كانوا يسمعون كلامًا مسيئًا من الذين لا يرغبون في المشاركة في

[1]- انظر المصدر السابق: ص: 157.
[2]- المصدر السابق: ص: 237.
[3]- المصدر السابق: ص: 238.
[4]- رواية "الأم": ص: 100.
[5]- المصدر السابق: ص: 102؛ وانظر أيضًا ص: 104.
[6]- المصدر السابق: ص: 111.

الاحتفال ويرون في بافل ورفاقه عصاة. وحين يبادرها ميرونوف بقوله: أتنضمين إلى العصيان؟ تجيبه: "لا بدَّ لي أن أسير مع العدالة، ولو مرة واحدة، قبل أن أموت"[1]. وحين يتهمها كغيره بتوزيع المنشورات في المعمل، تبتسم وينتابها شعور بالفخر والسعادة أن يقال عنها ذلك. فقد أظهرت في هذا الاحتفال الجماهيري العمالي شجاعة منقطعة النظير. رافقت ابنها ورفاقه حيث الكلمة الطيبة والنشيد الذي هتف به الجميع، النشيد الذي يدعو إلى إحقاق الحقوق والعدالة ونصرة العمال وتحقيق أهدافهم. تلك الكلمات التي كانت تملأ الصدور ولا يصدحون بها إلاَّ في هذا اليوم، اليوم الذي شهد ولادة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا وإعلان الثورة على الظلم، ورفع الراية الحمراء؛ راية الثورة والنضال. الراية التي كان بافل يحملها ويتقدم الجموع ويخطب فيهم.

ولئن لم تكلل المسيرة والاحتفال بالنجاح، وزُجَّ بابنها بافل ورفيقه أندريه وغيرهم في السجن، إلاَّ أنَّ ما قاموا به كان علامة فارقة في تاريخ هذه الثورة العمالية، إنَّها البداية، وكلُّ بداية لا بدَّ أن تصطدم بعقبات كثيرة. لكنها كانت مؤشرًا على الاستمرار والمضي في الطريق الذي ساروا فيه.

وهذا ما نلاحظه متجليًا في تصرف الأم حين سقطت الراية الحمراء من يد ابنها بعد القبض عليه وتمزيقها. تمسك الأم بما تبقى من الراية، تلك الراية التي حملها ابنها وتقدم المسيرة. الراية التي انضوى تحتها الكثير ممن آمنوا بمستقبل مشرق. وفي طريق عودتها إلى البيت تتولى القيادة وتقول للجماهير المحتشدة: "اسمعوا، محبة بالمسيح! أنتم جميعًا أيها الناس الأعزاء، افتحوا عيونكم جيدًا وانظروا دون ذعرٍ إلى ما حدث اليوم. إنَّ أولادنا، فلذات أكبادنا، خرجوا إلى العالم باسم العدالة –العدالة لسائر الناس! خرجوا في سبيلهم جميعًا... وفي سبيل أولادكم وقد حملوا هذا الصليب سعيًا وراء أيام أكثر إشراقًا. إنهم يريدون حياة أخرى– الحياة في الحقيقية والعدالة، وإنه الخير العميم للشعب بأسره ما يطلبون!... إنَّ أبناءنا خرجوا قدمًا إلى العالم يبحثون عن الفرح ويفتشون. وفي سبيل الجميع خرجوا، وفي سبيل حقيقة المسيح أيضًا. إنهم يسيرون ضدَّ كلِّ شيء يخنقنا به أشرار هذا العالم الكاذبون الجشعون، ويقيدون أيدينا ويضغطون علينا... أيها القوم الأعزاء، إن أبناءنا نهضوا في سبيل الشعب كله، في سبيل العالم أجمع، في سبيل العمال حيثما وجدوا. لا تتركوهم، لا تنكروهم، لا تتركوا أبناءكم على الطريق وحيدين منفردين. ارحموا أنفسكم، وثقوا وآمنوا بقلوب أبنائكم الذين أعطوا الحقيقة مولدًا، هذه

[1]– المصدر السابق: ص: 260.

الحقيقة التي يضحون بحياتهم في سبيلها بكل طيبة خاطر.. آمنوا بهم... أيها القوم الطيبون، إن الحياة لأبنائنا، والأرض لهم أيضًا... ما وُجد الربُّ يسوع لو لم يُقدِّم البشر حياتهم في سبيل مجده"[1].

كان لحمل الأُمِّ الراية الحمراء رمزية مهمة في تلك الأحداث وفي مسيرة الثورة التي لم تهدأ بعد اعتقال ابنها. وكان لكلماتها كذلك الأثر البالغ فيمن سمعها من الناس بعد إخفاق الاحتفال بالأول من أيار. وأكبروا فيها تلك الشجاعة وذاك الإيمان.

وقد شكَّل حمل الراية والعودة بها إلى البيت مرحلة جديدة من مراحل تطور شخصية الأم. إنَّها لا تريد للمسيرة أن تنتهي، ولا تريد للقضية أن تنتهي باعتقال ابنها ورفاقه. "وقعت عيناها في المطبخ على العصا، وقطعة القماش الأحمر ما برحت عالقة بها، فالتقطتها وهمَّت بإلقائها تحت الموقد، ولكنها انتزعت منها وهي تتنهد بقايا القماش وطوتها بعناية وخبأتها في جيبها، وأخيرًا كسرت العصا على ركبتها وطوَّحت بها تحت المدفأة"[2].

سابعًا: حثُّ الرفاق على السير في مسيرتهم دون وهن أو خوف وخاصة بعد إخفاق بافل في خطاب العمال ودعوة الجميع إلى الوقوف إلى جانبه بعد اعتقاله.

ثامنًا: القيام بالمهمات التي كان يُكلِّفها بها ابنها والحزب. وقد تعددت هذه المهمات، وكان بعضها قبل اعتقال ابنها وبعضها بعد اعتقاله. فقد كانت أولى المهمات التي قامت بها إيصال رسالة ابنها المتعلقة بقصة الكوبيك والضريبة التي فرضها مدير المصنع على العمال إلى المدينة لتنشر في الجريدة الخاصة بهم[3]. والمهمة الثانية توزيع المناشير على العمال في المصنع بعد اعتقال ابنها إثر خطابه في حادثة الكوبيك. وذلك بتكليف من بيجور إيفانوفيتش ممثل الحزب في المدينة حتى تُزال الشبهة عن ابنها الذي كان يقوم بتوزيع المناشير والكتب ويُطلق سراحه. وقد أدَّت تلك المهمة على أكمل وجه، وغمرتها سعادة لا توصف لما قامت من خدمة لابنها ولرفاقه وللقضية التي آمنوا بها، وآمنت هي بها أيضًا[4]. كما أنَّ بافل قد طلب إليها إحضار الكتب لإيصالها إلى الفلاحين في القرية[5].

وكذلك توزيع المنشورات في القرى والأرياف فيما بعد على العمال الفلاحين. وقد أثبتت في هذه المهمات كثيرًا من الوعي والشجاعة.

---

[1]- رواية "الأم": ص: 284-385-387-388.
[2]- المصدر السابق: ص: 216.
[3]- انظر المصدر السابق: ص: 98 وما بعدها.
[4]- انظر المصدر السابق: ص: 189.
[5]- انظر المصدر السابق: ص: 231.

تاسعًا: شكَّل اعتقال بافل وأندريه إثر الاحتفال بالأول من أيار وانتقالها إلى منزل نيقولاي إيفانوفيتش في المدينة مرحلة جديدة في حياة الأم ومسيرتها النضالية. فقد أظهرت الأم موقفًا جريئًا في حملها الراية، راية الثورة والنضال والكفاح ومتابعة المسيرة. إنَّها لا تريد أن تتوقف عن متابعة الطريق الذي بدأه ابنها بافل، فقد صممت على المضي في هذا الطريق النبيل، طريق العدالة وإحقاق الحقوق للمضطهدين المظلومين. فحين أخبرها نيقولاي إيفانوفيتش عن الاتفاق التي عُقِدَ بينه وبين كلٍّ من بافل وأندريه بانتقالها إلى المدينة. وافقت بشرط أن تعمل، أن تتابع الطريق الذي سار فيه ابنها ورفاقه، وما آمنت به، وما يحقق لها وجودها ويعيد لها قيمتها كإنسانة قادرة على أداء دورها في الحياة. تقول معبِّرة عن رغبتها في متابعة المسيرة حين سألها نيقولاي عن عناوين الفلاحين الذين طلبوا إصدار جريدة لهم: "إنِّي أعرفهم، ولسوف أجدهم وأفعل كلَّ ما تريدون مني. ولن يرتاب أحد قطُّ في أنَّي أزودهم بالمطبوعات غير المشروعة. بارك الله فيك، ألم أحمل المنشورات إلى قلب المعمل؟"[1].

فقد امتلكتها رغبة في التطواف في أرجاء البلاد، وعبور الغابات وأمِّ القرى، حاملة خرجًا وتتوكأ على عصا. تقول معبِّرة عن رغبتها هذه لنيقولاي: "أرجوك أن توكل إليَّ هذه المهمة، يا صديقي العزيز. سأمضي إلى سائر الأماكن. سأجد طريقي في سائر الولايات، وسأكون صيفًا وشتاءً –حتى الممات– حاجَّةً تضرب في طول الآفاق وعرضها. أهو نصيب سيئ بالنسبة إليَّ؟"[2].

هكذا كانت تحلم، أن تحقق ما تتمناه وترغب فيه، أن تكون "حاجَّةً" أن تكون مضحية وفداء للقضية التي وهب ابنها ورفاقه نفوسهم من أجلها. بل كانت امتدادًا لمسيرة ابنها ورفاقه بما فعلت من خلال المهام التي كلِّفت بها.

وقد حملت كلمة "حاجةً" رمزية ودلالة كبيرة على إيمانها وقدرتها على تحملٍّ كلِّ المشاق والعناء في الوصول إلى تلك الأماكن النائية في الأرياف، غير آبهةٍ بكلِّ ما ستصادفه في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر ما دام الأبناء يضحون بالغالي والنفيس من أجل تلك القضية السامية النبيلة.

فقد وجدت في بيت نيقولاي الراحة والطمأنينة والهدوء. ووجدت القلوب الدافئة التي احتضنتها؛ وأهم من هذا وذاك وجدت الثقة المتبادلة بينها وبين الآخرين. تقول مخاطبة

[1]– رواية "الأم": ص: 299.
[2]– المصدر السابق: ص: 300.

صوفيا أخت نيقولاي: "رأسي يدور ويدور، وأنا كالغريبة عن ذاتي. كان ينقضي زمن طويل فيما مضى قبل أن أقول لأيٍّ امرئ شيئًا من صميم قلبي، أمَّا الآن فإنَّ قلبي مفتوح على الدوام، وأنا أقول أشياء لم أحلم بالتفوُّه بها من قبل قطّ"[1].

وأتاحت لها الحياة في المدينة بين نيقولاي وصوفيا والأصدقاء الآخرين التعرف عن كثب إلى نبل القضية والغاية والأهداف السامية التي يسعى هؤلاء الرفاق من أجلها. واكتسبت في هذه المرحلة المعرفة النظرية والعملية. ففي رحلتها عبر الأرياف رأت بأمِّ عينها الواقع المرير الذي يعيشه الفلاحون وتعلمت الكثير منهم. وأيقنت أنَّهم مؤمنون إيمانًا قويًا بالتغيير والخلاص مما يعانونه. وتعرفت في رحلتها هذه على صوفيا معرفة حقيقية ورأت فيها تلك الإنسانة التي تملك طاقة كبيرة من القوة والإيمان بمستقبل مشرق وحياة أفضل وبقدرتها على الإقناع والتأثير فيمن تخاطبه ويستمع إليها.[2]

وقد نالت الأم ثقة الجميع وأحبوها وبعثت كلماتهم الرائعة فيها قوة وعزيمة على المضي في هذا الطريق الذي آمنت به كما آمن به ابنها بافل ورفاقه. فها هو ربين يخاطب صوفيا بقوله: "إنَّها الأولى، كما أعتقد، التي تبعت ابنها في هذه الطريق، إنَّها الأولى"[3]. فقد بعثت فيها هذه الكلمات القوة والعزيمة وجعلتها أكثر ثقة من ذي قبل بأنَّ المستقبل سيكون أفضل. وتُعبِّر عن ذلك مخاطبة صوفيا وواصفة شعورها من تلك الزيارة الأولى للفلاحين" لشدَّ ما كان ذلك رائعًا، وكأنَّه في حلم جميل! الناس يريدون معرفة الحقيقة، يريدون ذلك، يا عزيزتي. وكل شيء يجري أشبه بما في الكنيسة، قبل قداس الصباح، في يوم عيد عظيم. إنَّ الكاهن لم يأتِ بعد والجو لما يزل مظلمًا، والسكون يخيم على كلِّ شيءٍ حتى ليلقي الذعر في قلب الإنسان، وهؤلاء الناس بدأوا يتوافدون. ههنا امرؤ يشعل شمعة أمام الأيقونة، وهناك شمعة أخرى تضاء و... يطردون الظلمة شيئًا فشيئًا فتفسح المجال للنور في بيت الله"[4].

هذا الإحساس الذي انتابها وعبَّرت عنه بهذه الكلمات لم يكن إلاَّ تعبيرًا عن نمو وعيها وعمق تفكيرها في كلِّ ما رأت وعاشت. ودليل آخر على عمق تفكيرها وإحساسها بكل ما يحيط بها ما كانت تراه من رسوم منشورة في الكتب المختلفة في مكتبة نيقولاي وما تحاول قراءته. كانت تشعر بفرح إزاء ما تشاهده ويبهرها جماله ويزيدها حبًا بما في

[1]- المصدر السابق: ص: 312.
[2]- انظر المصدر السابق: ص: 356.
[3]- المصدر السابق: ص: 343.
[4]- رواية "الأم": ص: 360.

العالم من غنى. فها هي تخاطب نيقولاي بعد رؤيتها أطلس علم الحيوان الذي كان يوحي إليها –مع أنَّه كان مطبوعًا بلغة أجنبية– بثراء الأرض وجمالها واتساعها اللامتناهي: "ما أوسع هذه الأرض... ما أجملها، يا نيقولاي إيفانوفيتش، أليس كذلك؟ كم يوجد من هذا الجمال الغالي في كلِّ مكان خافيًا عن عيوننا، مارًا بنا دون أن نراه! الناس يتسرعون أبدًا دون أن يعرفوا شيئًا على الإطلاق عميٌ عن رؤية الأشياء التي تستحق الإعجاب، يعوزهم لذلك الزمن والرغبة أيضًا. كم يستطيع الناس أن يحصلوا من الفرح لو عرفوا غنى الأرض، وكم من الأشياء الرائعة تعيش على سطحها، وهذه الأشياء جميعًا هي لسائر الناس، وكلٌّ هو للجميع على حدٍّ سواء... أليس كذلك؟"[1]

على هذا النحو بدأ وعي الأم يزداد لما حولها يومًا بعد يوم. وكانت ترى الأمور أكثر وضوحًا لدى تجوالها بين الناس، وتشعر بالتناقضات. وغدا عملها الأساسي توزيع المنشورات ونقل الكلمة إلى فلاحي القرى والأرياف لإيقاظ الوعي بين الناس "أصبح ذلك عملها، فهي تتنكر كلَّ شهر عدة مرات في ثياب راهبة، أو بائعة خردوات، أو امرأة ميسورة الحال، أو حاجَّة تقية... ثم تضرب على وجهها عبر المقاطعة، وعلى ظهرها كيس أو في يدها حقيبة. وكانت دومًا، في القُطُرِ أو المراكب، في الفنادق أو الحانات، هي تلك المرأة الهادئة البسيطة التي تتوجه بالكلمة الأولى إلى الغرباء تجلب الانتباه إليها، غير هيَّابة، بلطفها واجتماعيتها وتلك الثقة بالنفس التي يتحلَّى بها من خبر الحياة جيدًا وعرك تجاربها"[2].

وكانت بتجوالها المستمر وانتقالها بين الناس تستمع إلى كل من تصادفه وتفتح قلبها إليه وتتقرب من مشكلات الناس والتعرف إلى أحوالهم. وترى عمق التناقضات التي يعيشها الإنسان. وبدأت رؤيتها تتغير عن الدين والمسيح والكنيسة والكهنة[3]. وكانت تتذكر كلمات ريبين "فقد خدعونا حتى في ما يتعلق بالله أيضًا"[4].

وكانت بعد كل رحلة من رحلاتها وتجوالها بين الناس والقرى تروي لنيقولاي فرحها وسعادتها بما شاهدته وأنجزته في مهمتها وأداء واجبها، وما تركت فيها تلك الرحلة من انطباعات وتأثيرات "ما أروع أن يضرب الإنسان في آفاق الأرض هذه، يُطمح بصره إلى الكثير من الأمور! ليجعلك ذلك تتفهم معنى الحياة. فقد أُلقي الشعب على هامش الحياة

[1]– المصدر السابق: ص: 366.
[2]– المصدر السابق: ص: 371 وما بعدها.
[3]– انظر المصدر السابق: ص: 372 وما بعدها.
[4]– المصدر السابق: ص: 373.

حيث يدبُّ متذللًا في مكانه ولكنه لا يمتنع –دون إرادة منه– عن التساؤل فيمَ سبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها. لمَ يجب أن يُطرد الناس الفقراء بعيدًا؟ لمَ يجب أن يجوعوا عندما يكون ثمة فيض من كلِّ شيء؟ لمَ يجب أن يكونوا أغبياء جاهلين عندما يكون هنالك ينبوع فيَّاض من الثقافة في كل مكان؟ وأين هو الله الكلي الرحمة الذي ليس في نظره غني أو فقير بل الكلُّ أولاده المحبوبون؟ إنَّ الناس يثورون شيئًا فشيئًا حينما يفكرون بحيواتهم، وهم يحسون الظلم سيخنقهم إن لم يهتموا بأنفسهم"[1].

على هذا النحو تشكَّلت الأم بيلاجيا نيلوفنا وتحولت من إنسانة بسيطة ساذجة إلى إنسانة واعية، مدركة سر الحياة، وجمالها، وعظمة الإيمان بالقضايا السامية النبيلة في الحياة. فقد وعت الحياة بأبعادها كلها، وأدركت بحسها عمق المأساة التي يحياها الإنسان، وغدت تميز كل شيء أمامها "وأصبحت تحسُّ، أكثر فأكثر، أنَّ من واجبها مخاطبة الناس بلسانها عن حياتهم المضطهدة"[2]. بل أصبحت هي حاملة راية الكفاح والثورة والنضال بعد اعتقال ابنها بافل، والمدافع عنه وعن رفاقه بكل ما حملته في قلبها من حب وإيمان بالطريق التي آمنوا بها وسلكوها. فقد آمنت بالكلمة قولًا وفعلًا وممارسة، وفي سبيل ذلك وهبت نفسها فداء ووفاء لما بدأه ابنها ورفاقه.

وبمعنى آخر أراد مكسيم غوركي أن يشكِّلها ويصنع منها إنسانة مثالًا لكلِّ من يريد أن يكون فاعلًا ومؤثرًا في المجتمع، وأراد أن يقول: إنَّ الإنسان يملك طاقات وقدرات كثيرة يمكنه أن يستغلها ويوجهها في سبيل تحقيق ما يصبو إليه ويحقق للمجتمع الخير والسعادة وحياة حرة كريمة. ورأى أنَّ للكلمة الصادقة، المكتوبة أو المسموعة الصادقة تأثيرها القوي والفعال في الضمائر الحية، وهي لا تموت بموت أصحابها وإنَّما تنتصر وتثمر وتبقى آثارها زمنًا طويلًا.

– المقاطع الأخيرة من الرواية تتحدث عن المحاكمة التي جرت لبافل ورفاقه المعتقلين، وإصدار المحكمة حكم النفي إلى سيبيريا بحقهم، وإصرار قيادة الحزب على نشر كلمة بافل وخطابه أمام المحكمة دفاعًا وتوضيحًا عن القضية التي من أجلها تمَّ اعتقاله ورفاقه. وإصرار الأم على توزيع خطاب ابنها في كلِّ مكان، والقبض عليها في المحطة –وهي تحمل خطاب ابنها المطبوع لتوزعه– وموتها في سبيل ما آمنت به ووهبت نفسها من أجله: "هل أترك الحقيبة وأُولِّي الأدبار؟... أهجر كلمات ابني؟ أتركها بين أيدي مثل

[1]– رواية "الأم": ص: 374.
[2]– المصدر السابق: ص: 374.

هؤلاء... هل أحملها معي؟ هل أهرب؟... أنا لست لصة! فقد جرت البارحة محاكمة بعض المتهمين السياسيين. وكان بينهم ابني فلاسوف. وفقد ألقى في المحكمة خطابًا – وهذا هو! إني أحمله إلى الشعب حتى يقرأوه ويفكروا في الحقيقة... هل تعلمون لماذا قدَّموا ابني والذين كانوا معه جميعًا إلى المحكمة؟ لسوف أقول لكم لماذا، وأنتم ستصدقون قلب أم وشعرها الشائب. فقد قدَّموهم إلى المحاكمة لأنَّهم بكلِّ بساطة، يحملون الحقيقة إليكم جميعًا! وقد اكتشفتُ البارحة أنَّ إنسانًا لا يستطيع نكران تلك الحقيقة – أبدًا ليس من ينكرها!... الفقر، الجوع، والمرض –هذا ما يكسب الناس من عملهم! الأشياء كلّهاُ ضدَّنا– نحن نموت مرهقين، طوال حياتنا، يومًا بعد يوم، في عملنا، ونحن أبدًا معفَّرون في الوحل، مخدوعون دومًا، بينما يمصُّ الآخرون كلَّ الفرح والفوائد حتى التخمة، ويقيدوننا في الجهل إلى الأبد، مثلما يقيدون الكلب إلى سلسلته، حتى لا نعرف شيئًا دون تفريق، حياتنا أشبه بليلٍ طويل مظلم[1].

ويتابع غوركي مشهد الاعتقال المؤثر وما جرى للأم من إهانة وضرب والنهاية التي وصلت إليها:

"وصاح الدركيان، وهما يقتربان منها شيئًا فشيئًا: –اذهبوا من هنا! تفرَّقوا!

ترنَّح القوم القريبون منها، وتماسكوا بالأيدي. وتراءى لها أنَّهم جميعًا على استعداد لأن يفهموا ويصدقوها، فأرادت أن تُعجِّل وتقول لهم كلَّ ما تعرفه، كلَّ تلك الأفكار التي جرَّبت قواها وجبروتها، والتي تهبُّ في يسر من أعماق قلبها لتشكل أغنية رائعة، فتدرك الأم في ألم وعذاب أنَّها أعجز من أن تنشد الأغنية التي تصدر عن شفتيها جشَّاء، مرتجفة، متكسرة:

- إنَّ كلمات ابني هي كلمات شريفة لعامل لم يبع نفسه. لسوف تعرفونها من جرأتها!

كان زوج من العيون الفتية عالقًا بها في هلع وإشراق.

تلقَّت ضربة في صدرها وأوقعتها على الدكة. وكانت أذرع الدركيين تتأرجح فوق رؤوس القوم، وتطبق على التلابيب والأكتاف وتلقي بالناس جانبًا، وتنتزع القبعات وترمي بها بعيدًا. وأضحى كلُّ شيءٍ أسود مضطربًا في عيني الأم، ولكنها تغلَّبت على ضعفها لتصيح بما تبقَّى من قوة في صوتها:

- وحِّدوا أيها الناس قواكم في قوة واحدة، عاتية!
- أمسك بها دركي من ياقتها بيد ضخمة حمراء، وراح يهزها بعنف وهو يصيح: اخرسي!

[1] – المصدر السابق، ص 602 وما بعدها.

اصطدم رأسها بالحائط، فخيَّمت على قلبها، برهة، سحابة من ذعر، ولكنه عاد مرة أخرى يفجر اللهب فيبعثر السحابة ويلاشيها.

قال الدركي:

- امشي!

- لا تدعوا شيئًا يخيفكم، فليس من شيءٍ يمكن أن يكون أكثر مرارة من الحياة التي تعيشون...

- اخرسي، قلت لك!

أمسك الدركي بذراعها، وشدَّها بعنف، وأمسك الدركي الآخر بذراعها الثانية، واقتاداها معًا وهما يخطوان بخطوات واسعة.

- ... أكثر من المرارة التي تلتهم قلوبكم كلَّ يوم وتقرض صدوركم!

واندفع الجاسوس إلى الأمام منها، يهزُّ قبضته في وجهها ويصيح بصوت حادٍّ:

- اخرسي، أيتها الكلبة!

فالتمعت عيناها واتسعتا، وراح فكُّها السفلي يرتجف بعنف، فصاحت وهي تُثبِّت قدميها على بلاط الغرفة اللزج:

- لن تستطيعوا قتل الروح المنبعثة للحياة!

- أيتها الكلبة!

ولطمها الجاسوس على وجهها بحركة قصيرة من يده، فارتفع صوت يصيح في خبث:

- إنَّها تنال ما تستحق، هذه الكلبة الهرمة !

أعماها هنيهة شيءٌ أسود وأحمر، وامتلأ فمها بطعم مالح من الدماء. ولكن ضجيجًا من الهتافات القصيرة حيَّاها:

- لا تضربها!

- هيا بنا، أيها الفتيان!

- يا لك من وغد، أنت!

- اضربوه!

- لن يستطيعوا إغراق عقولنا بالدماء!

دقُّوها في ظهرها وعنقها، ولطموا على كتفها ورأسها، فراح كلُّ شيءٍ يترنَّح أمام عينيها، ويُحوِّم في إعصار هائج من الصياح والعويل والصفير. كانت ثمة أشياء ثقيلة أصمت أذنيها، وملأت حلقومها، وأطبقت على خناقها بعزم، فمادت الأرض تحت قدميها، وتراخت ركبتاها، وارتجف جسدها تحت لسعات الألم المحرقة وثقل، ثمَّ ترنَّح

عاجزًا خائر القوى. ولكن عينيها لم تفقدا بريقهما، لا بل التقتا بأعين كثيرة أخرى تلتهب جميعًا بتلك النار البراقة الجريئة التي أصبحت عزيزة جدًا على قلبها.

دفعوها من خلال الباب، فانتزعت إحدى يديها من قبضة الدركي وتمسَّكت بمصراع الباب وصاحت:

- لن يُغرقوا الحقيقة، ولو في محيط من الدماء...

ضربوها على يدها.

- إنَّكم لا تثيرون إلَّا إسعار نيران الحقد عليكم، يا أيها المجانين، وذلك سوف يسقط على رؤوسكم يومًا ما!

وأمسك بها أحد الدركيين من عنقها وراح يخنقها فشخرت:

- يا لكم من مساكين.

فأجاب أحدهم بنشيج عنيف"[1].

وفي قصة "**أغاتـه شـفايغرت – Agathe Schweigert**" تروي أنا زيغرس – من تجربتها في المنفى والغربة – قصة السيدة أغاته شفايغرت التي التقتها وتعرَّفت إليها في أوائل عام 1941 وهما تنتظران، مع الكثير مثلهما، في إحدى جزر الأنتيل السفن التي ستُقِلُّهم إلى البلاد التي وعدتهم باللجوء[2].

أحداث القصة ومضمونها:

تبدأ الكاتبة سرد قصة أغاته شفايغرت منذ كانت طفلة في مطلع القرن العشرين إلى أن شبَّت وتزوجت وولدت طفلًا، وموت الأب في وقت مبكر من ولادة ابنها إرنست شفايغرت Ernst Schweigert. وسعيها الدائم إلى رعاية ابنها وتوفير تعليم جيد له منذ وجوده في المدرسة إلى دخوله الجامعة في مدينة فرانكفورت الواقعة على ضفة نهر الراين ليدرس الأدب الألماني والتاريخ. وانتسابه إلى الحزب الشيوعي في أثناء دراسته في الجامعة والمشاركة مع رفاقه الطلاب في توزيع المنشورات ضدَّ هتلر. وملاحقة الشرطة الألمانية له والسؤال عنه في مدينته ألغسهايم الواقعة في منطقة الراين وفي غيرها من

---

[1]- رواية "الأم": ص: 610/607.

[2]- انظر: زيغرس، أنا: "أغاته شفايغرت – Agathe Schweigert"، في "قوة الضعفاء – Die Kraft der Schwachen"، تسع قصص، برلين، ط5، 1974، ص: 27؛ وانظر كذلك: زيغرز، آنَّا: المخربون، قصص، ترجمة: عبدو عبود، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1981، ص: 40؛ وتسهيلًا على القارئ فإننا سنعمد في الاقتباسات المأخوذة من القصة على النصين الألماني والعربي ومقابلتهما وإن لزم التعديل في الترجمة سنشير إلى رقم الصفحة في النص الأصلي وفي الترجمة.

المدن، وهروبه متخفيًا من ألمانيا مع بعض زملائه إلى فرنسا وإقامته في باريس ومن ثمَّ في تولوز استعدادًا للمشاركة في النضال في سبيل الجمهورية الإسبانية ضمن الفرق الأممية ضدَّ فرانكو. ومشاركته في القتال في إسبانية ضمن اللواء الألماني وموته أخيرًا في هذه الحرب.

ومن جانب آخر تصف الكاتبة عمل الأم في الدكان الذي ورثته عن أمها والخاص بلوازم الخياطة ودأبها المتواصل من أجل توفير لقمة العيش لها ولابنها –فيما بعد– خلال الأوقات الصعبة التي مرت بها ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وما تلاها من السنوات التي كبر ابنها وأصبح طالبًا في الجامعة، كما تصوِّر لنا خوف الأم على ابنها وشوقها إليه بعد مغادرته البلاد، ورحلتها الشاقة من أجل البحث عنه وتفقد أحواله؛ هذه الرحلة التي تبدأ من ألغسهايم في ألمانيا إلى فرانكفورت إلى باريس ومن ثم إلى تولوز وأخيرًا إلى برشلونة في إسبانيا. دون أن تلتقي بابنها الذي فارقها نهائيًا منذ ما يزيد على سنتين. وتصف الكاتبة كذلك ما قامت به هذه الأم من عمل نبيل في المشفى التابع للقوات المحاربة ضد فرانكو؛ فقد كانت تغسل وتنظف وترتق وتساعد المرضى وتعالجهم وتتفقد أحوالهم بقلب مفعم بالحب وإيمانًا بما يفعله ابنها ورفاقه. وهناك تلتقي راينهولد شانس Reinhold Schanz الجريح، صديق ابنها منذ الطفولة في مدينة ألغسهايم، وتعلم منه أنَّ ابنها إرنست سقط شهيدًا أمام عينيه. فتحنو عليه وتقدِّم إليه كلَّ ما يحتاجه من رعاية. وتنتهي الحرب باندحار القوات الأممية أمام فرانكو ويهرب الناس خوفًا من الحرب، وتهرب هي مع الهاربين إلى الحدود الفرنسية الإسبانية، لتعيش مع عائلة غونزاليس الإسبانية الفارة أيضًا عند عائلة فرنسية من الفلاحين. وهنا لا تتأخر أغاته شفايغرت عن تقديم العون والمساعدة لكلٍّ من يحتاجها من الأطفال الفارين وللعائلة الفرنسية، فتعمل في فصل الصيف مع زوجة غونزاليس في الحصاد وتأمين لقمة العيش لها وللآخرين.

وفي تلك المرحلة تتمكن عن طريق زوج السيد غونزاليس الضابط والمعتقل في أحد المعسكرات الفرنسية من الوصول إلى صديق ابنها راينهولد شانس المعتقل أيضًا هناك، وتقديم العون له من مال ودواء. وعن طريق هذا الصديق الذي يخبرها بنيته بمغادرة البلاد إلى أمريكا اللاتينية كلاجئ، تقرر أن ترافقه إلى هناك.

وهكذا ينتهي بها المطاف أخيرًا إلى أن تصبح لاجئة، وإلى انتظار تلك السفن التي ستُقِلُّها مع غيرها من اللاجئين الألمان وغيرهم خوفًا من بطش النازيين، إلى بلاد أمريكا اللاتينية التي وعدتهم باللجوء وإيوائهم. وها هي تروي للكاتبة أنا زيغرس قصة حياتها الشاقة من ألغسهايم إلى حيث التقيتا وتعارفتا أوائل عام 1941

سبل التغيير وأشكاله في قصة "أغاته شفايغرت":

في هذه القصة نلاحظ تركيز الكاتبة على عملية التغيير والتحول في ثلاث شخصيات رئيسية هي: شخصية الأم أغاته شفايغرت، وشخصية الابن إرنست شفايغرت، وشخصية الصديق راينهولد شانس. وكلٌّ من هذه الشخصيات كما نلاحظ من سياق الأحداث كانت تسير حياتها سيرًا هادئًا وطبيعيًا في الحياة. فالأم كانت حياتها هادئة لا يشغلها إلَّا عملها وتأمين حياة كريمة وتعليم جيد لابنها. وإرنست شفايغرت كانت اهتماماته منصبة على العلم والمعرفة وما تتطلبه حياة الطفولة والشباب من متع ومرح. وراينهولد شانس، الذي لم تستطع عائلته تأمين متطلبات تعليمه، اتجه بعد ترك المدرسة للعمل في ورشة في مدينة مجاورة لمدينة ألغسهايم.

وكما في رواية "الأم" لمكسيم غوركي، فإنَّ التغيير يبدأ من شخصية واحدة، هي شخصية الابن، وتنتقل عدواه إلى باقي الشخصيات ويؤثِّر فيهم، وبنسب مختلفة، وحسب أعمارهم ووعيهم ومستوياتهم الفكرية والثقافية. بافل تغيَّر فغيَّر غيره أو أثَّر بغيره وممن يحيط به. إنَّ بداية التغيير ونمو وعي إرنست بدأ منذ كان في مدينته ألغسهايم حين كان في المدرسة، فقد كان يبدي ملاحظات حادة أمام أمه عن الوضع الذي تعيشه البلاد من سوء الأحوال في زمن هتلر: "لم تكن أغاته شفايغرت لتكترث بهتلر من قريب أو بعيد، تمامًا كما كان موقفها من سابقيه القصير فلهلم والرئيس إيبرت. لكن ابنها إرنست كان يبدي بين الحين والآخر ملاحظة حادَّة قد يكون مصدرها شانس الأب عن طريق راينهولد، الذي بقي على اتصال به كما تبين فيما بعد. ومع أن أغاته كانت تكره راينهولد، فقد كانت تنصت بشكل لا شعوري إلى رأي الوالد. كيف لا وهو الرجل الوحيد الذي كان ذات يوم مقرَّبًا من زوجها، لكنها لم تجرؤ –تماما كما كانت خلال طفولتها– على أن تتحدَّث معه وأن تطرح عليه الأسئلة"[1].

على أنَّ التغيير الواضح في شخصية إرنست شفايغرت يبدأ منذ أن كان يدرس في جامعة فرانكفورت، وما اكتسبه من معرفة ووعي من خلال أصدقائه في الجامعة، وانتسابه إلى الحزب الشيوعي، وما كان يقوم به هناك من توزيع المنشورات المناهضة لحكم هتلر. ذلك الحكم الذي ضيَّق الخناق على الحريات واستخدم أسلوب العنف والملاحقة لكلِّ من يخالفه أو يقف في وجهه من مفكرين وكتاب ومثقفين وطلاب وغيرهم. ومن تجليات هذا التغيير ذلك الحوار الذي دار بينه وبين أمه حين جاء يزورها

[1]– زيغرس، أنا: أغاته شفايغرت، النص الأصلي، ص: 12؛ والنص المترجم: ص: 17.

في المرة الثالثة أو الرابعة كما تروي الأم. فقد بدا غير سعيد، وأخذ يلومها لأنها تبيع الجنود الألمان أشياء طُبع أو طُرِّز عليها صلبان معقوفة كبيرة أو صغيرة أو ناعمة. فتجيبه الأمُّ بدهشة: "وكيف تستطيع أن تتابع تعليمك إذا لم أبع شيئًا"[1]؟ يودعها حزينًا غاضبًا. ومنذ تلك الزيارة أصبحت رسائله نادرة وقصيرة وباردة.

والتغيير الآخر في شخصية إرنست شفايغرت تعرفه الأم من صديقة راينهولد شانس حين جاءها ذات مساء برسالة من ابنها يطلب إليها إرسال نقود للفصل الدراسي في الجامعة، وقميصيه افقديمين ومعطفه. وحين سألت الأم راينهولد لماذا؟ أجابها: "إنَّه في خطر، وعليه أن يرحل بسرعة... فقد وزَّع مع بعض الطلاب منشورات ضدَّ هتلر... إذا سأل أحد، فأنا لم أكن هنا أبدًا"[2].

وفي صباح اليوم التالي وجدت تحت باب البيت قصاصة كُتب عليها: "سار كلُّ شيءٍ على ما يرام. فقد أصبح بعيدًا"[3].

هكذا تغير إرنست شفايغرت، وغدا مناضلًا ضدَّ هتلر، وأصبح ككثيرين من أمثاله في ذلك الوقت ملاحقًا ومطلوبًا لأنَّه يحمل فكرًا جديدًا. واضطره ذلك إلى مغادرة بلده ألمانيا، وتوجَّه إلى فرنسا، ومنها التحق بالقوات الأممية للنضال في سبيل الجمهورية الإسبانية ضد فرانكو الفاشي. فقد سار في هذا الطريق الذي ارتضاه لنفسه، ووهب حياته في سبيله.

ومع أنَّ القصة لا تتحدث إلاَّ قليلًا عن شخصية راينهولد شانس، فإنَّنا ندرك من تتابع الأحداث ولقائه مع السيدة شفايغرت مرتين؛ الأولى في إسبانيا حين كان جريحًا في المشفى، والثانية حين تزوره أغاته في معسكر الاعتقال. أنَّه قد سلك الطريق الذي سلكه صديقه إرنست، وحارب إلى جانب المناضلين في إسبانيا. وبقي على قيد الحياة. وقرر الابتعاد عن طريق النازيين الألمان بقبول اللجوء في بلاد أمريكا اللاتينية.

أمَّا شخصية أغاته شفايغرت فتبدو في الأربعين من عمرها وقد جعلتها الكاتبة أنا زيغرس تعايش كلَّ الأحداث التي جرت في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وما تلاها من سنوات حتى استلام هتلر الحكم، وما جرى على البلاد من حروب وويلات وملاحقات واعتقالات إبَّان حكمه. وتُصوِّرها على أنَّها غير مهتمة بهذه الأمور كلّها ولا يعنيها من الحياة إلاَّ أن تعيش بسلام وأمان، وأنَّ اهتماماتها في الحياة لا تعدو شيئين

[1]– زيغرس، أنا: أغاته شفايغرت، النص الأصلي–الألماني، ص: 13.
[2]– المصدر السابق: ص: 14.
[3]– المصدر السابق: ص: 14.

اثنين فقط؛ رعاية ابنها وتوفير حياة هانئة سعيدة له ومستقبلًا علميًا جيدًا، وتأمين كلِّ متطلبات الزبائن الذين يعرفونها منذ كانت أمها تعمل في هذا الدكان، فهي تعمل في دكانها بجد ونشاط مؤثرة الصمت الدائم لما يجري من حولها. ولم تفارق مدينتها ألغسهايم إلاَّ حين بدأت رحلتها في البحث عن ابنها.

فقد اختارت الكاتبة أنا زيغرس هذه المرأة الهادئة الوديعة البسيطة لترينا أنَّ الإنسان يملك طاقات هائلة في داخله وأنَّه قادر على فعل كلِّ شيء، إذا وُضع في مواقف مهمة في الحياة، وأنَّ صمته إذا كان يبدو للآخرين ضعفًا، فإنَّه قوة كامنة فيه. وأنَّ الحب الذي يملكه للآخرين يصنع المستحيلات. ومن هنا سمَّت أنا زيغرس المجموعة القصصية، التي جعلت قصة "أغاته شفايغرت" في أولها، باسم "قوة الضعفاء – Die Kraft der Schwachen"، للدلالة على ما تؤمن به من قوى في الإنسان كامنة وتحتاج إلى محرك لإظهارها. فقد كانت القوة المحركة لكلِّ أفعال هذه الأم هو حبها الكبير لابنها، وقادها هذا الحب إلى حب الآخرين، وفعل كلِّ شيءٍ يمكن أن تفعله من أجل الآخرين. إرنست هو حبها الحقيقي ومعنى حياتها كلها. وهذا الحب جعلها تبحث عنه في كلِّ مكان وتتبع أثره، وأخرجها من مدينتها ألغسهايم، إلى فرنسا، ومن ثم إلى إسبانيا، وأخيرًا إلى العالم البعيد. وكأنَّ خروجها من مدينتها يشبه خروجها من الأنا إلى الآخر، من الذات إلى ذوات الآخرين. من الانتماء إلى الضيق الصغير إلى الانتماء إلى الآخر الكبير والأوسع والأرحب. هذه هي الرسالة الكامنة في هذه الشخصية. وهذه هي رسالة الكاتبة أنا زيغرس، وهذه هي رسالة الأدب والفن عمومًا. أن يكون الإنسان فاعلًا مؤثِّرًا في الآخرين، وأن يخرج ما فيه من طاقات كامنة. وحين يحب الإنسان بعمق إنسانًا آخر فإنَّه يخاف عليه ويسعى إلى أن يصونه ويبعد عنه كلَّ أذى وكلَّ ما يسيء إليه. وهكذا فعلت أغاته شفايغرت، خرجت من بلدتها بحثًا عن ابنها، عن حبيبها، وبمعنى آخر كانت تبحث عن ذاتها وعن سرِّ وجودها وعن وإنسانيتها الممتدة في الآخرين. وقد عانت كثيرًا في هذا البحث وفي تتبع أثره، وفي أثناء هذا البحث لم تبخل على الآخرين بما تحمله من فيض حبها وإنسانيتها، وساعدت الآخرين وقدمت لهم يد العون في المشفى وفي أثناء الهروب وهي سعيدة بذلك كلِّه.

لم تمكنها رحلتها وبحثها عن ابنها من لقائه، لكنها التقت آخرين، أحبَّت الآخرين ومنحتهم من ذاتها حبًا وعطاء برحابة صدر. فقد مات ابنها في سبيل هدف نبيل آمن به ووهب نفسه من أجله. وهي فعلت ذلك. وهبت الآخرين ما يحتاجونه من حب ورعاية؛ ففي المشفى التي امتلأت بالجرحى بقيت تُضمِّد الجرحى ولم تخرج منها إلاَّ بعد أن

ضمَّدت آخر الجرحى وساعدت في نقلهم إلى السيارات. ويرتحل الجميع فارين هاربين من ويلات الحرب، وتُودِّع لويزا، حبيبة ابنها، والحزن يملأ عينيها وتصل مع نازحين كثر إلى الحدود الفرنسية. كلٌّ قد فقد حبيبًا أو أخًا أو زوجًا أو طفلًا، وكلٌّ يبحث في وسط هذا الفرار والدروب المجهولة عن مفقوده. أمَّا هي فإنَّها لم تكن تبحث عن أحد. إنَّها لم تُضع أحدًا. فقد أصبحت صورة ابنها إرنست متمثِّلة في كلِّ من رأته وعرفته في تلك المرحلة. وكذلك أصبح راينهولد شانس بالنسبة إليها، رأت صورة ابنها فيه، ورأته امتدادًا لابنها. أحبَّته كما كانت تُحِبُّ ابنها، وقدَّمت إليه ما كان يحتاجه من دواء ومال. وهو بالمقابل واساها بكلماته الرقيقة العذبة: "سيسافر غونزاليس قريبًا، وسيسافر الكثيرون، من أجل ألا يلقي النازيون القبض علينا عندما تمتدُّ الحرب إلى هنا... وعدتنا بعض دول أمريكا اللاتينية بحق اللجوء والعمل. وسترسل إلينا تذاكر سفر بالسفينة. إنَّ أصدقاء الجمهورية الإسبانية يتآزرون. إننا نضع حاليًا قائمة بأسماء الذين يجب أن يسافروا معنا. إنَّك يا سيدة شفايغرت والدة إرنست، فضلًا عن أنَّك فعلت الكثير. لذلك يجب أن تسافري معنا. وإلاَّ فإلى أين تذهبين؟ لا أظن أنك ستعودين إلى ألغسهايم؟"[1].

ومن غير تردد تجيبه أغاتي شفايغرت: "كلا، كلا، أريد أن أذهب معكم"[2].

فقد تركت كلمات رانهولد شانس آثارًا عميقة في نفسها بعد فقدها ابنها ووطنها. وبعثت فيها الأمل من جديد منحتها السعادة والحب. وكم هو جميل أن يسمع المرء وهو في حالة ضيق وشدة من الآخرين أنَّه واحد منهم، وأنَّه ينتمي إليهم. ولم تعد غريبة ووحيدة بعد سماع تلك الكلمات الطيبة المواسية الرقيقة.

الخاتمة ونتائج البحث:

أشرنا في مقدمة البحث إلى أنَّنا سنقف أولًا على قراءة العملين وتحليلهما وبيان ما فيهما من أفكار وسمات. وقلنا: إنَّنا سنرى إلى أيِّ مدىً كان تأثير مكسيم غوركي في أنا زيغرس، وأين تجاوز كلٌّ منهما الآخر. ويجب أن نقول: إنَّ هذه الدراسة فرضت علينا دراسة عملي مكسيم غوركي وأنا زيغرس بالطريقة الكلاسيكية في المقارنات؛ أي أن نقرأ كلَّ عمل على حدة ونخلص إلى نتائج المقارنة بين العملين. وهذه الطريقة هي المتبعة في معظم دراسات الأدب المقارن التطبيقية لبيان أثر السابق في اللاحق من الكتاب. وقد كانت رؤية رينيه ويلك – في أنَّ الأدب المقارن " يدرس الأدب كلَّه من منظور عالمي

[1]- زيغرس، أنا: أغاته شفايغرت، النص المترجم، ص: 39 وما بعدها.
[2]- المصدر السابق: ص: 40.

ومن خلال الوعي بوحدة كلِّ التجارب الأدبية والعمليات الخلاقَّة... هو الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية والعنصرية والسياسية، ولا يمكن حصر الأدب المقارن بمنهج واحد، فالوصف والتشخيص والتفسير والرواية والتقويم عناصر لا تقلُّ أهمية عن المقارنة فيه"[1]. –رؤيةً ناجعةً لأيِّ دراسة مقارنة من هذا النوع. وكانت هذه الرؤية ماثلة نصب أعيننا ونحن ندرس هذين العملين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّه لم يغب عنَّا منهج المدرسة الفرنسية القائم على التأثير والتأثر. وهو الأقرب إلى دراستنا من غيره من المناهج الأخرى. وذلك لأنَّ أنا زيغرس قرأت الأدب الروسي، ودون شكٍّ كانت رواية "الأم" من الأعمال التي لاقت رواجًا وقراءً في داخل روسيا وخارجها. وكذلك فإنَّ أنا زيغرس كانت مؤمنة بالفكر الاشتراكي ومتأثِّرة به، ومنتسبة أيضًا إلى الحزب الشيوعي الألماني. وشاركت في مؤتمرات عديدة للكتاب البروليتاريين الثوريين، وكانت حياتها وأعمالها شاهدًا على هذا النهج الذي سار فيه معظم كتاب الواقعية الاشتراكية في روسيا والعالم. وكان لتجربتها الطويلة ومعاناتها داخل الوطن وخارجه كبير الأثر في إبداعها وفي معرفتها النفس البشرية في ضعفها وقوتها. وما قصة "أغاته شفايغرت" إلاَّ واحدة من هذه الأعمال التي تجلَّت فيها تأثيرات الفكر الاشتراكي، وأظهرت من خلالها وعيَها الكامل لرسالة الأدب ووظيفته في الحياة.

ومن خلال قراءة العملين "الأم" و"أغاته شفايغرت" يمكن للمرء أن يقف على نقاط الالتقاء والاختلاف بين الكاتبين. ويمكن حصرها هذه النقاط في الآتي:

1– حاول كلٌّ من الكاتبين "مكسيم غوركي" و "أنا زيغرس" أن يُبيِّنا أنَّ التغيير نحو الأفضل ضرورةٌ من ضرورات الحياة، وأنَّ الإنسانَ أساسُ أيِّ تغير في الحياة. وأنَّه يملك طاقات وقدرات وإمكانات كثيرة وعليه أن يستغلَّها إذا أُتيحت له الظروف بذلك. وأنَّ الإنسان بأنواعه المختلفة وأعماره المتفاوتة، ومستويات وعيه وثقافته المتعددة، قادر على التغيير إذا أراد ذلك وصمم عليه ووجد من يوجِّهه نحو ذلك التغيير.

2– ووجدا أنَّ للتغير صورًا وأشكالًا وسبلًا مختلفة؛ فقد رأى غوركي أنَّ سبل التغيير في إنسان زمانه لا بدَّ أن يكون عبر قناتين أو وسيلتين ثقافيتين أساسيتين، هما: الوعي والقراءة؛ فمن غير الوعي لا يدرك الإنسان واقعه وحاجاته الروحية والمادية، ولا يدرك معاناته وآلامه وعذاباته، ولا يدرك معاني الخير والحب والعطاء، ولا يدرك معنى الحياة الحقيقية. والقراءة بأنواعها المختلفة وسيلة من وسائل وعي الإنسان وثقافته، وتجعله أكثر

[1]– ويليك، رينيه: مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة، العدد(110)، شباط 1987، ص: 318.

قدرة على فهم الحياة ووعيها، وتُوسِّع مداركه وتُنمِّي لديه الإحساس بكلِّ شيء في الحياة. وأنَّ للكلمة المنطوقة أو المكتوبة دورًا مهمًا في الحياة وفي الإنسان. فالقراءة وما تحمله من كلمات وأفكار هي أساس التغيير والتحول والتطور نحو الأفضل. وقد رأينا من خلال رواية "الأم" أنَّ الشخصيات كلَّها كانت تسعى جاهدة إلى أن تكون واعية واقعها القاسي السيئ وتسعى إلى تغييره، وأنَّها كانت مصرَّة بكلِّ ما تحمله من وعي وإيمان أن تصل الكلمة إلى كلِّ إنسان، عاملًا كان أم فلاحًا، في المدينة أو في القرية، ليقرأها ويغتني بما تحمله من معانٍ وطاقات محركة. ولهذا أصبح للكلمة معنى جديدًا وقيمة كبيرة ومن أجلها ضحَّى الكثير لتبقى هي التي تحيا بعد اعتقالهم أو موتهم فبافل وأندريه وريبين وغيرهم اعتقلوا بسبب الكلمة والأم بيلاجيا نيلوفنا اعتقلت وضحَّت بنفسها من أجل إيصال الكلمة للآخرين بل لتحيا الكلمة الحقَّة على مرِّ الزمن ويكون لها إشعاعاتها في النفوس دائمًا وأبدًا

وقد رأت أنا زيغرس ما يشبه ما رآه مكسيم غوركي. فالتغير بدا عندها بالوعي أولًا عبر كلمات والد راينهولد شانس التي كانت تصل إلى إرنست شفايغرت، وكذلك ما كان يبديه إرنست من ملاحظات عن الواقع الذي كان لا يرضيه ولا يعجبه في مدينة ألغسهايم من حركة الجيوش الألمانية في سهل الراين ومن أحوال البلاد في عهد هتلر. وكذلك ظهرت تأثيرات الحياة القصيرة التي عاشها الشاب إرنست في فرانكفورت ورحاب جامعتها وما فيها من طلاب وحوارات ونقاشات في نمو تفكيره ووعيه. إنَّ القصة لا تفصح عن ذلك بوضوح، لكنَّ القارئ يدرك أنَّه كان لجامعة فرانكفورت ذلك التأثير الكبير فيما وصل إليه إرنست، فقد انتسب إلى الحزب الشيوعي، وقام بتوزيع المنشورات ضدَّ هتلر، وبات ملاحقًا لما يقوم به من أفعال تزعج السلطات الحاكمة. وهنا تتجلى قيمة الكلمة أيضًا ودورها في زيادة وعي الناس بواقعهم وما يعيشونه وما يجب عليهم فعله إزاء ذلك. ولم تكن كلماته القاسية لأُمِّه ولومها على ما تقوم به من بيع تلك الأشياء للجنود الألمان التابعين لهتلر عن عبث لو لم يكن قد وصل إلى مرحلة متقدِّمة من الوعي والإدراك الذي وصل إليه. وقد قادته أفعاله هذه إلى الملاحقة والتضييق عليه في بلده وفي كلِّ مكان يوجد فيه. واضطره ذلك لمغادرة البلاد بحثًا عن مكان يمارس فيه نضاله وكفاحه وما يؤمن به، فخرج إلى إسبانيا للنضال من أجل حرية إسبانيا والقتال ضدَّ فرانكو. وكذلك سلك راينهولد شانس الطريق نفسه إلى إسبانيا. إلاَّ أنَّ الكاتبة لا تذكر شيئًا من حياة راينهولد وكيف تسنى له الخروج إلى إسبانيا وما الأسباب التي دفعته للانضمام إلى صفوف المقاتلين الألمان في إسبانيا. بل تدعنا نقرأ ذلك ما بين السطور، حين ترينا راينهولد مصابًا في المشفى التابع للمقاتلين ضدَّ فرانكو.

أمَّا التغيير في شخصية الأم أغاته شفايغرت فقد جاءها أولًا عن طريق حبها لابنها وخوفها عليه، ومن ثمَّ ما عاشته ورأته في رحلتها الطويلة في باريس وتولوز وأخيرًا في إسبانيا. فقد تأثَّرت بما رأت وما سمعته من كلمات راينهولد شانس الأخيرة فتحولت وتغيَّرت من إنسانة كانت تعيش لذاتها ولابنها فقط إلى إنسانة تعيش من أجل الآخرين وإسعادهم. خرجت من الأنا الصغيرة إلى الأنا الكبيرة. أصبح ابنها متجسدًا في كلِّ وجه تراه، وأصبح حبها للجميع.

3- الشخصيتان الرئيسيتان عند الكاتبين متشابهتان إلى حدٍّ كبير من حيث العمر، والثقافة والوعي والحياة البسيطة لامرأة في سنِّهما. وقد كان الكاتبان موفقين في ذلك الاختيار، وفي الغاية التي أراداها من وراء ذلك؛ فشخصية الأم بيلاجيا نيلوفنا في رواية "الأم"، وشخصية الأم أغاته شفايغرت في قصة "أغاته شفايغرت". في سنِّ الأربعين تقريبًا، وكلٌّ واحدة منهما مات زوجها وترك لها ابنًا وحيدًا سهرت على راحته عمرها كله وأصبح سرَّ وجودها وحياتها، وكلتاهما كانتا قليلتي المعرفة والثقافة، وحياتهما مقتصرة على شؤون الحياة اليومية. وكانتا بعيدتين عن العالم الخارجي وما يجري فيه. وهاتان الشخصيتان -كما رسُمتا وشُكِّلتا- تميلان إلى الصمت، ولا تتكلمان إلاَّ قليلًا وعمَّا تفرضه عليهما الحياة اليومية مع الآخرين. وتفكيرهما لا يتجاوز أو يتعدَّى حدود المكان والزمان اللذين تعيشان فيهما. وتبدوان ضعيفتي البنية، ومسالمتين إلى حدٍّ بعيد، وغير قادرتين على فعل شيءٍ ذي أهمية في الحياة. وقد أراد الكاتبان من خلالهما أن يُبيِّنا ويُثبتا أنَّ الإنسان، وإن كان بهذه الصفات، فإنَّه قادر على أن يفعل الكثير في الحياة لما يملكه في داخله من إمكانات وطاقات كثيرة، وحتى لو كان كبيرًا وغير واعٍ لما يجري حوله. وقد تغيَّرت هاتان الشخصيتان تغيرًا كليًا، وأصبحتا فاعلتين وإيجابيتين، وأدتا أعظم رسالة في الحياة. وتحولتا من السلبية إلى الإيجابية، بل أصبحتا قدوة لغيرهما من الشخصيات. وربَّما أراد الكاتبان أن يرسلا من خلالهما رسالة إلى كلِّ قارئ، وكلِّ إنسان. ومفاد هذه الرسالة "أنَّ الإنسان مهما كان ضعيفًا أو كبيرًا أو غير مثقف أو متعلِّم، فإنَّه قادر على أن يقوم بواجبه ويؤدِّي دوره في الحياة، وأنت أيها الإنسان الشاب عليك أن تقتدي بمثل هؤلاء الضعفاء، البسطاء، الكبار، الكبار في أعمارهم وفي أفعالهم؟". فالصمت والضعف الظاهريان لا يعنيان بشكل من الأشكال أنَّ الإنسان لا يقوى على فعل شيءٍ في الحياة، بل يصبحان في كثير من الأحيان مصدر قوة وعزيمة، ومصدر فيضٍ من الحب والعطاء، وافقدرة على بذل النفس والتضحية حين يتطلب الأمر ذلك.

4- اتَّبعت الشخصيتان الرئيسيتان عند الكاتبين الطريق نفسه الذي اتبعه ابنيهما، فقد كان دافع الحب والخوف هو السبب الأساسي في اتباعهما الطريق الذي سار فيه ابنيهما. لكنَّ هذا الدافع تحول مع مرور الزمن وسير الأحداث إلى تبني القضية التي يؤمن بها ابنيهما. وإن كان ذلك التبني اختلف كثيرًا في كلا العملين. ومما يلاحظ أنَّ مواقف الأم بيلاجيا نيلوفنا وما قامت به من أفعال في سبيل ابنها وفي سبيل القضية التي كان يؤمن بها ورفاقه تفوق كثيرًا ما قامت به أم إرنست شفايغرت.

5- قدَّم الكاتبان من خلال هذين العملين صورة مشرقة لأولئك الذين آمنوا بمبادئهم وأهدافهم النبيلة في الحياة، ووهبوا أنفسهم من أجلها فكلٌّ من بافل، وأندريه، وريبين، والأم بيلاجيا نيلوفنا، وإرنست شفايغرت، وراينهولد شانس، والأم أغاته شفايغرت وغيرهم، كانوا مثالًا في الإيمان والعزيمة والثبات في المواقف التي اتخذوها في الحياة، وضحُّوا بما آمنوا به دون تردد أو خوف، وإنَّما بحب وإصرار.

وقد كان مكسيم غوركي في عمله أكثر عمقًا وحماسة من الكاتبة الألمانية أنا زيغرس في إظهار المعاني الرائعة للمبادئ والغايات والأهداف التي كان يسعى خلفها معظم شخصيات رواية الأم ووهبوا أنفسهم من أجلها.

6- يلاحظ القارئ أن قصة "أغاته شفايغرت" مع أنَّها قصة قصيرة، إلا أنّها غنية ومليئة بالأفكار والأحداث الكثيرة. وهي ترقى إلى مستوى القصة أو الرواية لو أنَّ الكاتبة أرادت ذلك. لكن الكاتبة اختارت لقصتها جنسًا أدبيًا هو القصة القصيرة الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى عالم شخصياتها وتتبع أفكارها وأهدافها وغاياتها، والدخول إلى عوالمها الروحية والنفسية. هذا كلّه حُرمنا منه في عمل أنا زيغرس.

ومع ذلك كلِّه فإنَّ الكاتبين استطاعا من خلال عمليهما أن يقدَّما عملين أدبيين يستحقَّان القراءة. عالجا موضوعًا متشابهًا، لكن برؤيتين مختلفتين "مكانيًا وزمانيًا"، ونابعتين من ثقافتين مختلفتين مكانيًا "الروسية والألمانية" من جهة، ومشتركتين إيديولوجيًا "الفكر الاشتراكي" من جهة أخرى.

المصادر والمراجع:

أولًا: المصادر والمراجع العربية:

1. الأصفر، عبد الرزاق: المذاهب الأدبية لدى الغرب، مع ترجمات ونصوص لأبرز أعلامها، دراسة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.

2. بركات، وائل: الواقعية الاشتراكية، المغامرة والصدى –دراسة مقارنة–، وزارة الثقافة، دمشق، 1997.

3. الخطيب، حسام: جوانب من الأدب والنقد في الغرب، منشورات جامعة دمشق، 1993.

4. زيغرز، آنَّا: المخربون: قصص، ترجمة: عبدو عبود، ط1، دار الفارابي، بيروت، 1981.

5. غوركي، مكسيم: الأم، المؤلفات المختارة في 6 مجلدات، المجلد(5): "الأم"، ترجمة: فؤاد أيوب، سهيل دار "رادوغا" موسكو، دار التقدم، الاتحاد السوفييتي، 1983.

6. ويليك، رينيه: مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد(110)، شباط 1987.

ثانيًا: المصادر الأجنبية:

1. Seghers, Anna: Die Kraft der Schwachen, Neun Erzählungen, Aufbau-Verlag, Berlin und Weimar, 5 Auflage, 1974.